الطبعة الأولى

المختصر المفيد في شرح

كتاب التوحيد

راجعه وقدَّم له

معالي الشيخ: محمد بن حسن آل الشيخ

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للفتوى



بسم الله الرحمن الرحيم



راجعه وقدم له

معالي الشيخ/ محمد بن حسن آل الشيخ

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للفتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد بن حسن بن عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ

الرقم: ....
التاريخ: ....
المشفوعات: ....

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.أما بعد:

فإن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وأرسل جميع الرسل للدعوة إلى التوحيد، فقال سبحانه:﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالتوحيد هو أعظم ما أمر الله به، ومن ثم اهتم العلماء بالدعوة إليه، والنهي عن الشرك، فألفوا في ذلك الكتب، ومن هؤلاء العلماء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى حيث ألّف كتاب التوحيد فبيّن فيه ما بعث الله به رسله من توحيد العبادة، وذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرّب من ذلك أو يوصل إليه.

وقد اعتنى أهل العلم بهذا الكتاب عناية كبيرة، فله أكثر من عشرين شرحا ما بين مطول ومختصر، ولا زال العلماء إلى يومنا هذا يعتنون به لعظم منفعته، ومن ذلك كتاب: (المختصر المفيد في شرح كتاب التوحيد) وهو شرح مختصر لطيف، كُتب بأسلوب سهل واضح يفهمه عموم الناس، وامتاز بحسن الاختصار، وذكر مناسبة كل باب لكتاب التوحيد، وضرب الأمثلة، فجزا الله مؤلفه خيرا، ونفع بكتابه المسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد بن حسن بن عبدالرحمن آل الشيخ

عضو هيئة كبارا العلماء وعضو اللجنة الدائمة للفتوى



مقدمة

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الله تعالى ما خلق الجن والإنس إلا ليعبدوه، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)

وأرسل جميع الرسل للدعوة إلى التوحيد، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥) وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦).

فالتوحيد هو أعظم ما أمر الله به، ومن ثم اهتم العلماء بالدعوة إليه، والنهي عن الشرك، فألفوا في ذلك الكتب، ومن هؤلاء العلماء الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى حيث

أَلَّف كتاب التوحيد فبين فيه ما بعث الله به رسله من توحيد العبادة، وذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه.

وقد اعتنى أهل العلم بهذا الكتاب عناية كبيرة، فله أكثر من عشرين شرحاً ما بين مطول ومختصر، ولا زال العلماء إلى يومنا هذا يعتنون به لعظم منفعته، ومن ذلك كتاب: (المختصر المفيد في شرح كتاب التوحيد) وهو شرح مختصر لطيف، كُتب بأسلوب سهل واضح يفهمه عموم الناس، وامتاز بحسن الاختصار، وذكر مناسبة كل باب لكتاب التوحيد، وضرب الأمثلة فجزا الله مؤلفه خيراً، ونفع بكتابه المسلمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

محمد بن حسن بن عبدالرحمن آل الشيخ

عضو هيئة كبار العلماء وعضو اللجنة الدائمة للفتوى





مقدمة المؤلف

بسم الله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... أما بعد:
لما كان وجود البشر في الكون حقاً، ولا يمكن إنكار وجودهم هذا، ولما كان هذا الكون -بكل ما فيه- موجود حقيقة لا خيالاً، وقد صُنع بحكمة وتدبير، لا عبثاً، كان من اليقين الثابت، والمُدرك عقلا وحساً وجود إله واحد لا شريك له وراء كل هذا الإبداع والإعجاز الكوني.

وإذا كان القول بضرورة وجود إله أمر معلوم السبب، إذ هو مُنشيء الكون ومسيّره، فكان السؤال التالي؛ لماذا يجب أن يكون هذا الإله واحدا؟؟

والإجابة؛ حتى يكون هو-دون غيره- صاحب الملكوت الأوحد، والكلمة العليا، وحتى لا يفسد الكون بوجود غيره معه ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢)

هذا إذًا هو التوحيد، أساس الإيمان وأصله، وكما يقول ابن تيمية: «التوحيد الذي لابد منه لا يكون إلا بتوحيد الإرادة والقصد، وهو توحيد العبادة، وتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله أن يُقصد الله بالعبادة ويريده بذلك دون ما سواه، وهذا هو الإسلام».

هذا وكون التوحيد هو أصل الإيمان ولا يصح إيمان أحد إلا به هو ما أكد عليه المولى عز وجلّ، حينما وعد بغفران جميع الذنوب إلا الشرك به لمن مات عليه ولم يتب منه قبل وفاته ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ (النساء: ٤٨) وعلى ذلك يكون التوحيد هو أول مظاهر العقيدة الصحيحة التي يجب على المسلم اتباعها وانتهاجها قال الله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦).

لذا كان موضوع هذا الكتاب بيان التوحيد الذي أوجبه الله على عباده، وخلقهم لأجله وبيان ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب أو المستحب من الشرك الأصغر والبدع.

كما أن تحقيق التوحيد كما قرره أهل العلم معناه تخليصه، وتنقيته من شوائب الشرك الأكبر والأصغر والخفي والجلي، والبدع المحدثة في الدين، مما لا يدل عليه دليل.

وانطلاقا من هذه الأهمية العظيمة والمعنى الثاقب للتوحيد -باعتباره أصل الإسلام- كان العزم بتكريس الجهد في عمل متواضع قمنا فيه بتلخيص أهم ما كتبه علماء الإسلام عن التوحيد، وذلك بأسلوب سلس يستطيع العامة -قبل المتخصصين- فهمه والاستفادة منه، وإزالة ما يلتبس على المسلم في عقيدته ، والتحذير من أقوال وأفعال قد يقع فيها المسلم بحسن نية أو بسبب موروثاتٍ تكون مخالفة للتوحيد، وهو ما نتعوذ بالله منه، أو أن تكون هذه الأفعال أو الأقوال مما ينافي كمال التوحيد، أو هي مهلكة من مهلكات البدع مما يمس بالربوبية والتوحيد.

لذا نتمنى من الله تعالى أن يكون خيراً وسنة محمودة وأن ينفع به، وأن تكون نيتنا في ابتغاء وجه الله وحده مقبولة عنده سبحانه وتعالى.

وفقنا الله وإياكم لما يحبه ويرضاه.







١

باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

يقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢)

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل.

وفي حديث عتبان: فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **(قال موسى: يا رب علمني شيئا أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون**

هذا. قال: يا موسى لو أن السموات السبع وعامرهن غيري والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله) (رواه ابن حبان والحاكم وصححه).

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: **(سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: قال الله تعالى يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة).**

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما بيَّن المؤلف رحمه الله تعالى وجوب التوحيد ومعناه، بيَّن في هذا الباب فضل التوحيد وآثاره الحميدة، ونتائجه الجميلة التي منها تكفير الذنوب لأجل الحث عليه، والترغيب فيه.

نتناول هنا باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب، ويعني باب ف بيان فضله (التوحيد) وبيان تكفيره للذنوب لمن مات عليه، فالتوحيد هو أصل الدين وأساس الملة وهو أعظم الأعمال وأفضلها وهو أساسها ولا تصح الأعمال كلها إلا بالتوحيد، كل عمل ليس معه توحيد فهو باطل

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٨٨)، وأيضاً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾(الفرقان:٢٣) فشرط جميع الأعمال التي يتقرب بها الناس شرطها التوحيد وهو توحيد الله والإخلاص له والإيمان بأنه مستحق العبادة دون كل من سواه، وهو معنى: لا إله إلا الله، فإن معناها لا معبود حق إلا الله، ولا بدّ معها من الشهادة الثانية بأن محمدًا عبد الله ورسوله، هاتان الشهادتان هما أصل الدين وأساس الملة، وكل من يأتي بعمل ولم يأت بهاتين الشهادتين ولم يؤمن بمعناهما فإن أعماله باطله. فشرط العمل أمران: إخلاص لله، وموافقة للشريعة، وكل عمل لا يكون فيه إخلاص لله أو لا يكون فيه موافقة للشريعة يكون باطلاً، وكل عمل لا يكون معه توحيد الله والإيمان برسوله يكون باطلاً، فأساس الدين وأساس الملة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، مع الإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله مما كان ومما يكون، هذا هو أصل الدين وأساس الملة ثم بعد ذلك الأعمال من صلاة وغيرها يقول جل وعلا ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ (يعني بشرك) أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(الأنعام:٨٢)

وهذا من الترجمة باب فضل التوحيد وتكفيره للذنوب، فمن أتى بالتوحيد وسلم من الشرك كله فإن له الأمن وله الهداية المطلقة. لما سمع الصحابة هذه الآية جاؤوا إلى النبي ﷺ وجثوا عنده على الركب وقالوا: يا رسول الله: نزلت هذه الآية ولا نطيقها، أينا لم يظلم، كل واحد منا خطاء، من يسلم من ظلم نفسه، فقال ﷺ: ليس هو الذي تعنون ليس هو ظلم المعاصي، إنما هو الشرك ألم تسمعوا إلى القول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣) فمن أتى بالشرك بطل عمله وليس له أمن ولا هداية، الشرك الأكبر، أما من سلم من الشرك الأكبر والشرك الأصغر فإن له الأمن الكامل والهداية الكاملة، فإن سلم من الشرك الأكبر ولكن عنده شيء من الشرك الأصغر أو المعاصي فإن عنده أصل الأمن وعنده أصل الهداية، لكن هدايته غير كاملة وأمن غير كامل، وهو على خطر من دخول النار بالمعاصي التي يموت عليها لكن معه أصل الأمن وأصل الهداية، فمن مات على التوحيد الخالص لله والإيمان برسوله ﷺ فمعه أصل الأمن ومعه أصل الهداية، لكنهما ليسا كاملين إلا بترك المعاصي، فمن ترك

المعاصي وأنواع الظلم كله صار له الأمن الكامل والهداية الكاملة، والظلم أربعة أنواع:

الأول: ظلم الشرك وهو الظلم الأكبر.

والثاني: ظلم النفس بالمعاصي.

الثالث: ظلم العباد بالقتل أو بالضرب أو بالمال أو بالعرض.

الرابع: ظلم لارتكاب المعاصي الصغيرة.

هذه أنوع الظلم، فمن وقاه الله أنواع الظلم كلها صارت له الجنة لأول وهلة، ودخل الجنة من أول وهلة، وصار له الأمن الكامل والهداية الكاملة.

أما من مات على الظلم الأول وهو الشرك، فإنه من أهل النار ليس له الهداية ولا الأمن، أما من سلم من الظلم الأكبر ولكن مات على شيء من ظلم المعاصي أو ظلم الله فهو تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر له، وأدى عنه الحقوق، وإن شاء عذبه على قدر جرائمه التي مات عليها ثم بعد التطهير والتمحيص يخرجه الله من النار كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(النساء:١١٦)، وجاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ أن كثيرًا من العصاة يدخلون

النار بسبب معاصيهم ثم يشفع فيهم الشفعاء، ويشفع فيهم النبي ﷺ، ويشفع عدة شفاعات في كل شفاعة يحُد الله له حدًا فيخرجهم من النار ثم يلقون في نار الحياة فيموتون كما تموت الحبة في حمل السيل، إذا تم خلقهم أدخلهم الله الجنة وهذا قول أهل السنة والجماعة أن العاصي على خطر قد يدخل النار ويُعذب ثم يخرج منها إلى الجنة إذا محّص وطُهّر، وقد لا يدخلها ويعفو الله عنه قبل ذلك، أما المشرك فإنه لا يخرج من النار، بل إلى النار من أول وهلة، الكافر كل من حُكم بكفره كفرًا أكبر فإنه إلى النار من أول وهلة ولا يخرج منها أبدًا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(الأنعام:٨٨)، ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾(البقرة:٣٩) وقال جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ (البقرة:١٦٧)، وقال فيهم أيضاً: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(المائدة:٣٧) هذه حال الكفرة ومن هذا حديث عبادة: أن من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح

منه وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل هذا من الأحاديث المطلقة من أحاديث الوعد وأن من مات على التوحيد والإيمان فله الجنة، لكن إن كانت له ذنوب وسيئات فهو تحت مشيئة الله، وإن لم يكن له ذنوب ولا سيئات ومات على توبة دخلها من أول وهلة. فقوله: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل يعني من صلاح وفساد إذا تاب عن ذلك، إذا تاب من الفساد، فإن كان معه الفساد فالأحاديث الأخرى تقيده والأحاديث المطلقة وأحاديث المعاصي تقيد هذا المطلق كما قال عز وجل:
﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه:٨٢)
قيده بالتوبة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ، أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾(آل عمران:١٣٥-١٣٦) قيد هذا بالذين ماتوا على التوبة من غير إصرار، أما من أصر على الذنوب ومات عليها فهو تحت مشيئة الله فحديث عبادة وما جاء في معناه من الأحاديث

المطلقة المقيدة للنصوص الأخرى، وهي نصوص التوبة والإقلاع والندم، أو إذا مات على توبة صادقة فإنه يدخل الجنة من أول وهلة.

وهكذا حديث أبي سعيد: إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله فهو محرم على النار إذا قال لا إله إلا الله ولم يصر على السيئة مقيد بالنصوص الأخرى، فإن مات على الإصرار على السيئات فهو تحت مشيئة الله، أما إذا قال لا إله إلا الله يبتغي بهذا وجه الله توبة صادقة وإقلاعاً من الذنوب فإنه يدخل الجنة من أول وهلة ويحرم على النار كما تقدم في حديث عبادة، كلها مقيدة بالسلامة من الشرك والمعاصي وعدم الإصرار.

وهكذا حديث أبي سعيد في قصة موسى: قال: يا رب علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل لا إله إلا الله، قال: يا رب كل عبادك يقولون هذا قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة ولا إله إلا الله في كفة مالت بهن لا إله إلا الله يعني رجحت بهن إذا قالهن عن صدق وعن إخلاص وتوحيد وإقلاع من الذنوب ترجح به

جميع سيئاته، وهو حديث مطلق مقيد بالنصوص الأخرى كما تقدم، وفي هذا دلالة، كما أن الأنبياء قد يخفى عليهم بعض معنى لا إله إلا الله حتى يعلمهم الله وينبههم كما جرى لموسى عليه السلام.

وفي هذا الباب حديث البطاقة وهو حديث صحيح، يقول فيه النبي ﷺ: إذا جاء يوم القيامة يؤتى برجل ينشر له تسعة وتسعون سجلاً فيها ذنوبه وسيئاته فيقال له: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيهابها الرجل ويقول: لا، فيقول له: نعم إن لك عندنا حسنة، لا تجحد ولا تغبن ولا تظلم، ثم يؤتى ببطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله فتوضع البطاقة في كفة، والتسعة والتسعون في كفة قال: فرجحت البطاقة فطاشت السجلات.

قال العلماء: معناه أنه قالها عن توبة وإخلاص وصدق فرجحت حسناته وتوحيده وإيمانه بالرسول بذنوبه وسيئاته لكونه قالها عند الموت تائبًا نادمًا، فصارت هذه البطاقة ترجح جميع السيئات؛ لأنها صارت عن إقرار صادق وتوبة صادقة فرجحت بجميع سيئاته..

وهكذا حديث أنس: يقول الله: لو أتيتني بقراب الأرض بخطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة يعني إذا بالتوحيد الخالص الذي ليس معه سيئات؛ لأن طاعة الهوى نوع من الشرك الأصغر، فإذا لقي الله بالسلامة من الشرك كله ومن المعاصي لقيه الله بالمغفرة الكاملة وأدخله الله الجنة، أما إذا لقيه بالسلامة من الشرك، لكن عنده معاصي وعنده ذنوب فهو تحت مشيئة الله كما دلت عليه النصوص الأخرى من القرآن والسنة ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾(طه:٨٢)، ومثل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾(النساء:٤٨) تقيد مثل هذه النصوص، هذه النصوص عند العلماء مقيدة، إطلاقها مقيد بالتوبة الصادقة وعدم الإصرار على المعاصي، فإذا أتى العبد ربه بتوبة صادقة وتوحيد خالص ليس معه إصرار على الذنوب فإنه يدخل الجنة من أول وهلة، أما إن كان معه إصرار ومعه ذنوب لم يتب منها فهو تحت مشيئة الله، إن شاء الله عذبه على قدر معاصيه كما يجري لكثير من العصاة ثم يخرجه الله من النار بتوحيده وإسلامه، وإن شاء

عفا عنه وأدخله الجنة من أول وهلة لكونه مات على التوحيد والإيمان وعدم الظلم الأكبر

ولنا في هذا المقام أن نشير إلى أن النصوص المطلقة في دخول الموحدين الجنة كلها مقيدة بالنصوص الأخرى التي فيها التقييد بالتوبة وعدم الإصرار على المعصية.






٢
باب من حقق التوحيد، دخل الجنة بغير حساب

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل:١٢٠)، وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون:٥٩).

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير -رحمه الله- فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة؟ فقلت: أنا ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حُمَة»، قال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أنه قال: (عرضت على الأمم، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجلُ والرجلان،

والنبيَّ وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب)، ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك فقال بعضهم: فلعلهم اللذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه فقال: (هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون)، فقام عكاشة بن محصن فقال: «ادع الله أن يجعلني منهم» فقال: (أنت منهم) ثم قام رجل آخر فقال: «ادع الله أن يجعلني منهم»، فقال: (سبقك بها عكاشة).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان ذكر التوحيد وفضله قد أتى سابقاً، فكان من المناسب أن يذكر بيان تحقيقه لأنه لا يحصل كمال فضله إلا بكمال تحقيقه.

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب: تحقيق التوحيد كما قرره أهل العلم معناه تخليصه، وتنقيته من شوائب الشرك الأكبر والأصغر والخفي والجلي، والبدع المحدثة في الدين، مما لا يدل عليه دليل من الكتاب أو السنة، والإصرار على المعاصي لا سيما الكبائر. وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل: ١٢٠) ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ﴾: إمام الحنفاء، ومحطم الأصنام الصابر على الأذى في ذات الله.

﴿كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ يعني صبر صبراً قد لا يوجد عند عموم الخلق، نعم النبي -عليه الصلاة والسلام- صبره المثال المحتذى في تحمل أعباء الدعوة، وإبراهيم -عليه السلام- استحق هذا الوصف الذي يتلى إلى قيام الساعة، ﴿كَانَ أُمَّةً﴾؛ لأنه صار في وقت من الأوقات منفرداً بتحقيق التوحيد، ومن حوله كلهم مشركون، حتى أقرب الناس إليه، في مدة طويلة. حطم الأصنام، وأُمر بذبح ابنه فتله للجبين، ما تردد ولا تأخر، فهو أمة، وهو إمام، فالأمة تطلق ويراد بها الإمامة، ويطلق على الشخص بأنه أمَّة يعني أنه

كالأمة، بما يشتمل عليه من الصفات التي يندر أن تجتمع في غيره، بل لا يمكن أن تجتمع إلا في مجموعة من الناس.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا﴾: القنوت دوام الطاعة، فهو على الدوام مطيع لله جل وعلا ﴿حَنِيفًا﴾: من الحنف، وهو الميل، حنف وأحنف يطلق على مائل الرجل، وهنا من مال عن الشرك وأهله إلى التوحيد.

﴿حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: إبراهيم الذي حطم الأصنام عدو الشرك والمشركين لم يك من المشركين»، ومفهومه أنه محقق للتوحيد، إذا ترادفت هذه الأوصاف: أمة، قانت لله، حنيفاً، ولم يك من المشركين، إذن هو محقق للتوحيد، ومع ذلك خاف على نفسه وبنيه من الشرك، ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ (إبراهيم:٣٥)، فليس الإنسان مادامت روحه في جسده في مأمن عن الزيغ، والافتتان.

﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾: سيأتي في باب: الخوف من الشرك، وإذا كان إبراهيم الذي حطم الأصنام هو الذي يقول: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾؛ وما ذلكم إلا لعلمه التام بخطر الشرك، وتجد المسلم مع الأسف يقيم بين

ظهراني المشركين، وقد يقلد المشركين، وقد يتأثر ببعض أفعالهم، ولا يخشى على أولاده من أن ينحرفوا وأن يرتدوا كما حصل لأولاد كثير ممن يعيش في بلاد الكفار، ولا شك أن هذا تفريط وخيانة للنفس والولد؛ ولذا الهجرة من أوجب الواجبات، ولم تبح الحيلة إلا في سبيلها، ولم يعذر إلا الضعيف المستضعف الذي لا يستطيع، لا يستطيع ولا عن طريق الحيلة، وإلا إذا استطاع عن طريق الحيلة تعينت عليه الهجرة، فالإقامة بين ظهراني المشركين لا شك أنها خطر على النفس، بكثرة الإمساس يقل الإحساس، وكم حصل من عظائم الأمور لبعض من يتكرر منه السفر فضلاً عن الإقامة بين ظهراني المشركين، تجده يتساهل شيئاً فشيئاً حتى لا يكون الشخص الذي تعرفه من قبل، فالأسفار أضرارها عظيمة، وعواقبها وخيمة فضلاً عن الإقامة بين ظهرانيهم التي لا بد أن يتأثر بها مهما قال، لا بد أن يتأثر.

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٧) إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون:٥٩)

يعني أنهم محققون للتوحيد، مشفقون من أن ترد عليهم هذه الأعمال كما في قوله -جل وعلا-: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ (المؤمنون:٦٠) يعني عندهم خوف وإشفاق من أن ترد عليهم الأعمال، وهذا إذا جمع المرء بين حسن العمل مع الخوف والوجل من أن يرد عليه هذا العمل؛ لأنه لا يركن إلى نفسه، بل ركونه إلى ربه -جل وعلا-، فإنه إذا اعتمد على نفسه ووكل إليها، فإنه يوكل إلى ضعف وعجز، لكنه يعمل الأعمال الصالحة، ويقدم ما يستطيع من أوامر، ويترك ما أمر باجتنابه، (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه) ومع ذلك هو خائفٌ وجلٌ ألا يقبل منه هذا العمل، كما حصل من الصحابة -رضوان الله عليهم-، وفي مقابلهم أهل التفريط، بل أهل النفاق الذين يجمعون بين سوء العمل مع الأمن والإدلال بهذا العمل، ولا شك أن الخوف والخشية..، الخشية هي فائدة العلم، وخلاصته، والإشفاق بمعنى الخشية، ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ (فاطر:٢٨).

إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾: يعني أنهم يحققون التوحيد.

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله-: «أي من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله خائفون وجلون من مكره بهم».

عن حصين بن عبد الرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير وكلاهما تابعي، فقال سعيد: «أيكم رأي الكوكب الذي انقض البارحة؟!» يعني النجم الذي رمي به، «فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت»، خشي أن يظنوا أنه قام يجتهد وأنه مدح نفسه بما لم يفعل تحرزًا من الرياء؛ فقال: «أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت» يعني استيقظت بسبب حية أو عقرب، «فقال له سعيد: وما صنعت لما لدغت؟ قال: استرقيت، قال: وما حملك على ذلك؟»، «قال: حديث حدثناه الشعبي عن بريدة بن الحصين أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حمة»، الحديث هذا مرفوع في الرواية الأخرى أن الرسول قال: لا رقية إلا من عين أو حمة الحمة سم من ذوات السموم، فالمعنى أني استرقيت لأجل هذا الحديث، أن الرسول أخبر أن الرقية تنفع من لدغ الحيات والعقارب، وهكذا عين العائن وهي النظرة من أعظم علاجها وأنفع علاجها الرقية، رقية المريض المعين بالفاتحة وآية الكرسي وقل هو الله أحد والمعوذتين مع الدعاء له بالشفاء

والعافية، ثم قال سعيد: «ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: عرضت علي الأمم يعني ليلة الإسراء والمعراج حين أعرج به إلى السماء قبل الهجرة فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد، هذا كان حين عرج به إلى السماء قبل أن يهاجر المدينة فإن الله عرج به إلى السماء وفرض عليه الصلوات الخمس وهو فوق السماء السابعة عليه الصلاة والسلام، فرأيت النبي ومعه الرجل والرجلان يعني ما اتبعه إلا رجل أو رجلان، والنبي ومعه الرهط وفي رواية: الرهيط، يعني العدد من ثلاثة إلى تسعة يقال له رهط والرهيط أقل من ذلك خمسة ستة والرهط إلى تسعة، والنبي وليس معه أحد يعني رأى بعض الأنبياء لم يتبعه من أمته أحد، كلهم أبوا ولم يقبلوا دعوته نسأل الله العافية، بل منهم من قتله قومه كما أخبر الله عن اليهود أن منهم من يقتل الأنبياء بغير حق، فهذا مثل ما قال المؤلف في مسائله قلة من استجاب للأنبياء كما قال تعالى﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سبأ: ٢٠) وقال عز وجل﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣) وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ

﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف:١٠٣) هذا يبين أن بعض الأنبياء ليس معه إلا الرجل والرجلان، وبعض الأنبياء ليس معه إلا الرهيط، وبعض الأنبياء ليس معه أحد، فرفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، فيه بيان كثرة أتباع موسى من بني إسرائيل عليه الصلاة والسلام، ثم نظرت إلى الأفق فقيل لي: هذه أمتك وفي اللفظ الآخر: انظر إلى الأفق الآخر فرأى سوادًا أيضاً في الأفق الثاني، فقيل له: هذه أمتك يعني مستجيبة التي أطاعت ودخلت في الإسلام، أمته كبيرة لكن المقصود الفرقة الناجية التي اتبعته وانقادت لشرعه، هذه أمتك ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، يعني هذه الأمة المستجيبة التي تابعت الحق واتبعت الحق والهدى، «ثم نهض فدخل منزلته فخاض الناس في أولئك السبعين، فقال بعضهم: هم الذين صحبوا رسول الله ﷺ وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا بالله شيئًا وذكروا أشياء خاضوا فخرج عليهم النبي ﷺ فسألهم عما يخوضون فيه فأخبروه فقال: هم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، يعني من أعمالهم الطيبة ترك الاسترقاء ترك الحاجة

إلى الناس ترك سؤال الناس بالاسترقاء، والاسترقاء هو طلب الرقية، وترك الكي لأن الكي نوع من التعذيب لا يصار إليه إلا عند الحاجة، مثل ما قال ﷺ: الشفاء في ثلاث: شرطة محجم، أو شربة عسل، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي وفي اللفظ الآخر: وأنهى أمتي عن الكي، فالكي هنا كالطب

ولا يتطيرون، الطيرة التشاؤم بالمرئيات والمسموعات، فمن صفة أهل الإيمان والتقوى صفتهم ترك التطير، التطير نهى عنه النبي ﷺ، النبي نهى عن التطير كما يأتي له باب خاص في هذا الكتاب، والطيرة ما أمضاك أو ردك، وهي التشاؤم بالمرئيات والمسموعات؛ وهي من الشرك الأصغر كما قال ﷺ: الطيرة شرك، الطيرة شرك، فالمقصود أن الواجب على المؤمن الحذر من الطيرة لأنها من الشرك، والنبي ﷺ قال: أحسنها الفأل، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأت بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك، يعني إذا رأى ما يكره يقول: اللهم لا يأت بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك، ولا يتطير، في اللفظ الآخر: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير

إلا طيرك، ولا إله غيرك، والكي عند الحاجة، عند الحاجة لا بأس، ولهذا كوى النبي بعض أصحابه للحاجة كما قال ﷺ: الشفاء في ثلاث: شرطة محجم أو شربة عسل أو كية نار فإذا دعت الحاجة للكي لا بأس، والاسترقاء لا بأس به عند الحاجة إليه ليس محرمًا لكن عند الحاجة لا بأس تركه أفضل، ولهذا أمر النبي عائشة أن تسترقي، وأمر أم أولاد جعفر أن تسترقي لأولاد جعفر لما أصابتهم العين؛ فالاسترقاء عند الحاجة لا بأس لكن تركه أفضل، عند عدم الحاجة إليه إذا تيسر دواء آخر «فقام عكاشة بن محصن الأسدي فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم؟ قال: أنت منهم، وفي اللفظ الآخر: «قال: اللهم اجعله منهم؟ ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم؟ فقال: سبقك بها عكاشة! استعمل النبي هذا الكلام سداً للباب لئلا يسترسل الأمر فيقوم أناس ليسوا أهلاً لذلك، فقال: سبقك بها عكاشة؛ سدًا للباب، وهذا فيه استعمال المعاريض التي يحصل بها سد باب التسلسل إلى ما لا ينبغي، والمقصود من هذا الحديث بيان أن من تحقيق التوحيد أو من كمال التوحيد الاستغناء عن الرقية والكي عند عدم الحاجة إليه

مع العناية بأداء ما أوجب الله وترك ما حرم الله؛ فإن أساس الدين وأساس الملة هو المحافظة على توحيد الله والاستقامة على دينه والحذر من المعاصي هذا هو الأساس في دخول الجنة والنجاة من النار وأن تكون من السبعين.

وفي اللفظ الآخر: أن الله زاد مع كل ألف سبعين ألفًا، وفي بعض الروايات: مع كل واحد سبعين ألفًا، وثلاث حثيات من حثيات ربي، فالله جل وعلا وعد كل مؤمن، كل متق لله وعده بالجنة ﴿إن الـمُتقين في جَنَّاتٍ وعُيُون﴾ (الحجر:٤٥)، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ (التوبة:٧٢) كل مؤمن موعود بالجنة، كل متق موعود بالجنة، كل من اتقى الله واستقام على دينه فهو من أهل الجنة، يدخلها بغير حساب ولا عذاب، لكن ينبغي للمؤمن أن يحذر أسباب الشر، وأن يجتهد في طاعة الله ورسوله، ويترك الأسباب المكروهة والمحرمة، فالمكروه الكي عند عدم الحاجة والاسترقاء عند عدم الحاجة، أما إذا دعت الحاجة إلى الكي والاسترقاء فلا بأس عند الحاجة إلى ذلك، أما الطيرة فهي محرمة؛ لأنها من المعاصي التي يجب

تركها وعلى ربهم يتوكلون يعني يجب الاعتماد على الله في كل شيء مع تعاطي الأسباب، الإنسان يأخذ بالأسباب لا بأس، لكن يكون قلبه معلقًا بالله معتمدًا على الله متوكلاً عليه في كل شيء، يعلم أنه سبحانه مسبب الأسباب وأن الأسباب لا تنفع إلا إذا نفع الله بها، فقلبه معلق بالله قد توكل عليه واعتمد عليه مع تعاطيه الأسباب.







٣

باب الخوف من الشرك

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء: ٤٨- ١١٦) وقول الله وقال الخليل ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: ٣٥)

وفي الحديث (أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، فسئل عنه، فقال: الرياء)، وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من مات وهو يدعو لله ندا دخل النار، (رواه البخاري). ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئا دخل النار.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان سبق ذكر التوحيد وفضله وتحقيقه، كان من المناسب

أن يذكر الخوف من ضده وهو الشرك ليحذره المؤمن ويخافه على نفسه.

فهذا الباب في بيان الخوف من الشرك، وأنه يجب الحذر منه؛ لأنه أعظم الذنوب وأشدها وأخطرها فالواجب الحذر منه، يجب على كل مؤمن وعلى كل مسلم أن يحذره؛ لأنه قد وقع في الناس وغلب على الأكثرين فالواجب الحذر منه، ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:٤٨) فأعلمنا سبحانه أنه لا يغفر الشرك لمن مات عليه، بل له النار، كما قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ (المائدة:٧٢)، وقال تعالى ﴿وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (الأنعام:٨٨)، وقال تعالى ﴿ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ﴾(الفرقان: ٢٣)، وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه قال ﴿ وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٥).

فإذا كان إبراهيم يخاف على نفسه وعلى بنيه الشرك فكيف بغيره؟ يقول جل وعلا عن إبراهيم إنه قال: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ

أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم: ٣٥)، وقبلها: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾ (إبراهيم:٣٥) فإبراهيم الخليل عليه السلام يسأل ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وما ذلك إلا لعظم الخطر، ولهذا قال إبراهيم التيمي رحمه الله: فمن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟! إذا كان إبراهيم لا يأمن ويسأل ربه العافية فمن يأمن بعد ذلك؟

وفي الحديث يقول ﷺ: أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء أخوف ما يخاف على الصالحين الشرك الأصغر؛ لأن الشرك الأكبر قد يعرفونه ولا يخفى عليهم، لكن الشرك الأصغر قد يُبتلى به الصالحون وهو الرياء في القراءة أو صلاة أو صوم أو حج أو غير هذا، فلهذا خافه النبي ﷺ عليهم فيجب الحذر منه! وهو أن يرائي بعمله الناس أو يقصد بعمله الدنيا، ولهذا يقول ﷺ: أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر يعني أيها المؤمنون، أما الشرك الأكبر فهو مخوف على جميع الأمة وهو أعظم الذنوب، ولكن المؤمنين قد عرفوه فهم بحمد الله يحذرونه، ولكن قد يقعون في الشرك الأصغر وهو الرياء، وبعض الكلمات الشركية مثل: ما شاء

الله وشاء فلان، لولا الله وفلان، والحلف بغير الله، كل هذا مما قد يقع من بعض الصالحين وبعض المسلمين لخفاء الأدلة عليه ولجهله.

وفي حديث ابن مسعود يقول ﷺ: من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار يعني يتخذ لله ندًا يدعوه مع الله ويستغيث به وينذر له وإلى غير هذا. والند النظير والشبيه والمثيل، وتسمى الأصنام أندادًا؛ لأنها شبهت بالله في عبادتها والضراعة إليها وخوفها، وهكذا مَن اتخذ الأنداد من الملائكة أو الأنبياء أو الأصنام أو الجن، كله باب واحد يجب الحذر من ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٢) يعني وأنتم تعلمون أنه الخلّاق الرزاق. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥).

وقال ﷺ: من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار هذا وعد ووعيد، وعد لأهل التوحيد بالجنة، ووعيد لأهل الشرك بالنار، أهل التوحيد قد وعدهم الله بالجنة والنجاة، فالواجب عليهم تحقيق توحيدهم

والحذر مما يجرحه من المعاصي، والواجب على من أشرك بالله أن يتوب إلى الله وأن يبادر بالتوبة والإصلاح حتى لا يدخل النار. وأن من مات على الشرك الأكبر، لا يدخل الجنة، ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار، وإن كان شركاً أصغر، دخل النار- إن لم يكن معه حسنات راجحة - لكن لا يخلد فيها، ويستفاد من الحديث وجوب الخوف من الشرك، لأن النجاة مشروطة بالسلامة من الشرك، وأنه ليس العبرة بكثرة العمل، وإنما العبرة بالسلامة من الشرك.






٤
باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا اللّه

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ (يوسف: ١٠٨).

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله. -وفي رواية: إلى أن يوحِّدوا الله. فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقرائهم. فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب (أخرجاه).

ولهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله،

يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يعطاها فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها: فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. فأرسلوا إليه فأُتي به، فبصق في عينيه؛ ودعا له فبرأ كأن لم يكن به وجع. فأعطاه الراية فقال: أُنفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه. فو الله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم يدوكون أي: يخوضون.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان ذكر التوحيد وفضله قد جاء في الأبواب السابقة، وما يوجب الخوف من ضده، ذكر في هذا الباب أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم.

يعتبر باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله هو متمماً ومكملاً لما جاء بباب التوحيد ومعنى باب في شهادة أن لا إله إلا الله باب وجوب الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، والإيمان به

وبرسوله عليه الصلاة والسلام، ذاك بيان وهذا بيان بوجوب الدعوة إلى الله وهذا واجب العلماء؛ لأنهم خلفاء الرسل، فالواجب على أهل العلم الدعوة إلى الله وتبصير الناس بحق الله ودين الله وإرشادهم إلى ما خلقوا له وتحذيرهم مما نهى الله عنه، هذا هو واجب أهل العلم ووجوب كل مؤمن على حسب طاقته أن يدعو إلى الله وأن يرشد إلى دينه وأن يحذر من ضد ذلك، قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ (يوسف:١٠٨) يعني قل يا محمد قل يا أيها الرسول للناس: هَذِهِ سَبِيلِي يعني هذه الطريقة التي أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغير هذا والجهاد في سبيل الله هذه هي سبيل الله قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ يعني هذه طريقي ومحجتي التي أسير عليها وهي الدعوة إلى الله وهي الصراط المستقيم وتوحيد الله وطاعته والدعوة إلى ذلك أَدْعُو إِلَى اللَّهِ لا إلى غيره، لا إلى مُلك ولا إلى قبيلة ولا إلى مذهب معين من مذاهب الناس، ولكني أَدْعُو إِلَى اللَّهِ يعني أدعو إلى توحيد الله وطاعة الله واتباع شريعته كما دعت الرسل، الرسل كلهم بُعثوا بهذا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦) وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٢٥) كل الرسل من أولهم إلى آخرهم، من أولهم نوح لما أرساله الله إلى أهل الأرض وقبله آدم إلى آخرهم محمد ﷺ، كلهم أرسلوا إلى الناس بهذه الدعوة يدعون الناس إلى توحيد الله وطاعته والإيمان به وبرسله وبكل ما أخبر الله به ورسوله عن الآخرة والجنة والنار والحساب والجزاء وغير ذلك، ويأمرون بما أوجب الله، وينهونهم عما حرم الله، هذه دعوة الرسل عَلَى بَصِيرَةٍ على علم وليس عن جهل، الداعي إلى الله لا بدّ أن يدعو إلى الله على بصيرة، وقال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ (فصلت:٣٣) وقال تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ (الحج:٦٧).

وفي الصحيحين أن معاذًا لما بعثه الرسول ﷺ إلى اليمن قال له: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب وهم أهل اليمن، وكان سكانه ذلك الوقت من العرب ومن اليهود: إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وفي رواية البخاري: فادعهم إلى أن يوحدوا الله، وهذا هو معنى

شهادة أن لا إله إلا الله، معناها: توحيد الله والإخلاص له، «فإن هم أطاعوك لذلك» يعني تركوا الشرك واستقاموا على التوحيد وآمنوا بالرسول محمد ﷺ؛ فإنهم يؤمرون بعد هذا بالصلاة والزكاة وبقية أمور الإسلام، قال: فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد في فقرائهم هذا يبين أنهم لا يُدعون إلى الصلاة والزكاة وغيرها إلا بعد التوحيد، بعد أن يدعوا الشرك، بعد أن يوحدوا الله وينقادوا للشريعة ويؤمنوا بالله بأنه ربهم وإلههم ومعبودهم الحق، ويدعون عبادة الأوثان والأصنام ويؤمنوا بمحمد ﷺ وأنه رسول الله، فأول شيء يدعى إليه توحيد الله والإخلاص له والإيمان به وبرسوله عليه الصلاة والسلام وبالإيمان بكل ما أخبر الله به ورسوله، فالتوحيد أول شيء ثم الدعوة إلى الصلاة والزكاة والصيام والحج وترك المعاصي وفعل كل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه، هذا كله بعد إيمانهم بالله ورسوله، بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، تكون الدعوة بعد ذلك

إلى بقية أركان الإسلام وإلى بقية أمور الإسلام وإلى ترك ما نهى الله عنه. هذا هو واجب الدعاة على هذا التفصيل البدء بالأهم فالأهم.

وهكذا في حديث سهل بن سعد لما بعث النبي ﷺ عليًا إلى خيبر، وكانت خيبر فيها اليهود وقد قاتلهم النبي ﷺ وفتح بعض حصونهم وطال حصارهم، وفي بعض الأيام دعا عليًا، في بعض الأيام قال: لأعطين الراية غدًا رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله فبات الناس يدوكون ليلتهم يخوضونها كل واحد لعلي أكون هذا الأمير الذي يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، محبة لهذا الوصف ما هو لأجل الإمارة، لأجل هذا الوصف العظيم أنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، كل مؤمن يحب الله ورسوله، وكل مؤمن يحبه الله ورسوله، ولكن الشهادة من الرسول ﷺ على التعيين بأن هذا الشخص يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله هذه منقبة عظيمة، ولهذا حرص عليها الصحابة، فلما أصبح غدوا إليه كل يرجى أن يعطى هذه الراية، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ ابن عمه رضي الله عنه ورابع الخلفاء، قيل له: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه فلما جاء

وقد كان قد رمدت عيناه تفل في عينيه، ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية وقال: انفذ على رسلك يعني سر على مهلك، حتى تنزل بساحتهم يعني سر إلى اليهود في خيبر، ولا تكن جبانًا بعيدًا انزل بساحتهم لأن النزول بساحتهم أوهن لقلوبهم وأضعف لقلوبهم وأشجع للمسلمين،.ثم ادعهم إلى الإسلام، وإن كانوا قد دُعوا قبل هذا، أراد أن يكرر عليهم إعذارًا وإنذارًا، بأن ادعهم إلى الإسلام يعني مرة أخرى بعدما دعاهم النبي ﷺ في السابق، وهذا يدل على استحباب كثرة تكرار الدعوة إذا رآها ولي الأمر أن يكرر، وإن رأى أن يغير عليهم غرة فلا بأس.

قال: وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه من صلاة وغيرها، فو الله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم يعني خير لك من جميع النوق الحمر التي على الأرض، كانت العرب تعظمها وتحبها، والمعنى أن هذا خير لك من الدنيا وما عليها، هذا مثال، والمراد أن هداية واحد خير لك من الدنيا وما عليها، فهذا فيه الحث على الدعوة والترغيب فيها، وأن الإنسان يحرص على هدايتهم لا يكون

همه قتالهم، يكون أكبر همه أن الله يهديهم هذا هو المطلوب الأول، فإن أصروا وأبوا إلا القتال قاتلهم، كما أمر النبي ﷺ عليًا بذلك..

وفي هذا الحديث والذي قبله الحث على الدعوة إلى الله، وأن على أهل العلم وعلى ولاة الأمور أن يحرصوا على الدعوة إلى الله وتبليغ الناس دين الله لعلهم يهتدون، ثم الجهاد بعد ذلك إذا لم يستجيبوا وجب الجهاد مع القدرة، ويستفاد من الحديث غير الظاهر فيه من فضل علي، وجوب الدعوة إلى الإسلام قبل القتال، وأن من امتنع من قبول الدعوة من الكفار وجب قتاله، وأن الدعوة تكون بالتدريج، بنطق الشهادة أولاً ثم أداء الفرائض ثانياً، كما أنه لا يكفي التسمي بالإسلام، بل لابد من معرفة واجباته، والقيام بها.







٥
باب من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما، لرفع البلاء أو دفعه

وقوله تعالى ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ (الزمر:٣٨) وعن عمران بن حصين: «أن النبي ﷺ رأى رجلا في يده حلقة من صفر فقال: ما هذه؟ قال من الواهنة. فقال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنا؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدا. رواه أحمد بسند لا بأس به.

وله عن عقبة بن عامر مرفوعا: من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية: «من تعلق تميمة فقد أشرك».

ولابن أبي حاتم عن حذيفة أنه رأى رجلا في يده خيط من الحمى، فقطعه وتلا قوله تعالى﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦).

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد

أنه يتضمن ذكر شيء مما يضاد التوحيد وهو التماس رفع الضُّر أو دفعه من غير الله، للتحذير منه، فإن التوحيد يُعرف بضده.

قول الله جل وعلا ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر:٣٨) هذه الآية نزلت في الشرك الأكبر، والسلف يحتجون بالآيات التي في الأكبر على ما يقع من الشرك الأصغر؛ لأن الشرك الأكبر والأصغر يجمعهما اسم الشرك، ولأن هذا واقع من المشركين أيضًا، فالآية تحذر من ذلك؛ لأنه في تعليق الودع أو التمائم أو الحروز نوع من تعلق القلوب على غير الله، ونوع من ضعفها في رجاء الله والتوكل عليه، فصارت من الشرك من هذه الحيثية.

وهكذا حذيفة استدل- في آخر الباب- على تعليق الخيط بالآية التي نزلت في الشرك الأكبر ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ (يوسف:١٠٦) ؛ لأن اسم الشرك يعمهما فناسب أن يُحتج عليهما بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر.

والتمائم تكون من خرق، وتكون من ودع، وتكون من عظام، وتكون من رقع من جلد، وتكون من قرطاس، وتكون من غير ذلك، تعلق على الأولاد من العين، وربما علقت على البهائم، وربما علقت على الكبير المريض، وكلها ممنوعة.

فالواجب الحذر من ذلك، ولهذا جاء في حديث عمران بن حصين لما رأى عليه النبي ﷺ حلقة من صوف، قال: ما هذا؟ قال: من الواهنة، قال: انزعها، فإنها لا تزيدك إلا وهنًا؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا. والواهنة مرض يأخذ باليد، فهذا يدل على أن تعليق الحلقة أو الودعة أو غير ذلك لأجل الواهنة أو غيرها من الشرك.

أما العلاج بالأدوية من كي من ومن أدوية لا بأس، أما اعتقاد في حلقة أو خيط يعلق هذا هو الممنوع

قال: لا تزيدك إلا وهنًا لأن هذا الاعتقاد الباطل يزيده وهنًا وضعفًا وشرًا لسوء اعتقاده.

وهكذا كونه يعلق ورقة مكتوب فيها كذا وكذا يعلقها في عضده أو في عنقه أو ما أشبه ذلك هي من جنس الحلقة، يجب تجنب ذلك، أما الدواء كونه يداويه أو يربطه رباط الدواء أو

يجبره بجبيره هذا لا بأس به، هذا من الدواء، يقول النبي ﷺ: عباد الله تداووا، ولا تداووا بحرام، ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء وإنما الممنوع هذه التعليقات التي يعلقها الجهال يزعمون أنها تدفع عنهم البلاء أو ترفعه عنهم بعد وقوعه، هذه التي أخبر فيها النبي ﷺ أنها من الشرك.

وهكذا ما في حديث حذيفة أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى فقطعه ثم تلا قوله تعالى﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف:١٠٦) لما قال له أنه قرأ فيه وأنه علقه من أجل الحمى، فدل ذلك على أنه لا يعلق شيء ولو رقية فيه، الرقية ما ينفث على المريض أو في ماء يصب عليه أو يشربه أما أن يعلق عليه خيط أو خرق قرئ فيها أو ما أشبه ذلك لا، هذا من جنس التمائم، يجب ترك ذلك، وإنما المشروع الرقية أو الأدوية الأخرى المباحة التي يرجى من ورائها أن تكون سببًا للاستشفاء كتضميد بشيء كالكي كالمروخ كالإبر كالحبوب وما أشبه ذلك، الأدوية المعروفة؛ لأن الرسول ﷺ قال: عباد الله تداووا ولا تداووا بحرام، ويقول ﷺ: ما أنزل الله من داء إلا أنزل فيه شفاء، علمه من علمه وجهله من جهله فالدواء

شيء من مشروب أو مأكول، وأما تعليق التمائم فشيء آخر ممنوع؛ لأنه يعتقد في التميمة المعلقة أنها تكون سببًا لدفع البلاء أو رفع البلاء، فيكون ذلك من باب الشرك الأصغر، أما لو اعتقد أنها ترفع البلاء وأنها تدفع البلاء بنفسها كان شركًا أكبر.







٦

باب ما جاء في الرقَى والتمائم

عن أبي بشير الأنصاري أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره؛ فأرسل رسولا أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت.

وعن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الرقى والتمائم والتولة شرك (رواه أحمد وأبو داود).

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعا: من تعلق شيئا وُكل إليه (رواه أحمد والترمذي).

التمائم: شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين؛ لكن إذا كان المعلَّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود.

و«الرُقى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منها الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و «التولة»: هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: يا رويفع، لعل الحياة ستطول بك فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلد وترا، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه.

وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة» رواه وكيع. وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه استمرار في ذكر الأشياء التي تخل بعقيدة التوحيد من الرُقى والتمائم الشركية.

باب ما جاء في الرقى والتمائم» يعني باب أحكام الرقى جمع رقية، وهي ما يقرأه الناس على المرضى والتمائم، وهي ما يعلق على الناس يسمونها التمائم، يسمونها حروزا، يسمونها جوامعا، وهي شيء يعلق على الصبي أو على المريض إما في رقبته وإما في عضده يسمونها الحروز، يسمونها الجوامع،

يسمونها التمائم، وهي منكرة أنكرها النبي ﷺ وحذر منها، قال: من علق تميمة فلا أتم الله له، من تعلق تميمة فقد أشرك، وفي الصحيح أنه ﷺ بعث في السرايا وفي البعوث من يدعوهم إلى الله جل وعلا وأن يبلغهم أن لا يبق في رقبة أي بعير قلادة من وتر إلا قطعت، كان بعض الناس يعلق على الإبل القلادة من الأوتار يزعمون أنه يحفظها بذلك، فأمر النبي ﷺ بقطع الأوتار التي تعلق على الإبل من أجل حفظها بزعمهم، قلادة من وتر أو قلادة قصد بها هذا المعنى.

أما القلائد التي للقيادة وللزينة فلا بأس بها، لا بأس أن يقلد إبله وخيله على الزينة أو القيادة، لكن أما أن يقلدها لدفع البلاء وتسمى الأوتار وتسمى التمائم هذا لا يجوز لا إبل ولا غيرها.

وهكذا حديث ابن مسعود يقول ﷺ: إن الرقى والتمائم والتولة شرك الرقى يعنى المجهولة والتي فيها شرك والتي يعتمد أهلها عليها دون الله، هذه من الشرك.

وهكذا التمائم وهي الحروز المعلقة من الشرك، وهكذا التولة وهي نوع من السحر يستعمله النساء في الغالب، تصرف

به المرأة زوجها إليها، وهذا يسمى الصرف والعطف، وهو من أنواع السحر، فكلها سماها النبي عليه الصلاة والسلام من الشرك، ويستثنى من هذا الرقى الشرعية الرقى بالقرآن والدعوات الطيبة غير داخلة في هذا؛ لقوله ﷺ: لا بأس بالرقى مالم تكن شركًا، وقد رقى النبي ورُقي عليه الصلاة والسلام، وقال: لا رقية إلا من عين أو حمة يعني لا رقية كاملة تامة إلا من عين أو حمة، من عين العائن، والحمة السامة من ذوات السموم.

أما الرقية بالأسماء المجهولة أو الدعوات المجهولة أو باللغات المجهولة فلا تجوز، أو الرقية التي فيها شرك لا تجوز.

فالرقى الشرعية لا بدّ فيها من شروط ثلاثة:

الشرط الأول: أن تكون باللسان العربي المعروف.

والشرط الثاني: وألا يكون فيها محذور شرعا.

والشرط الثالث: ألا يعتمد عليها بل يعتقد أنها سبب إن شاء الله نفع بها وإن شاء لم ينفع بها، فالاعتماد على الله سبحانه وتعالى.

وعن عبدالله بن عكيم رضي الله عنه أن النبي عليه الصلاة

والسلام قال: من تعلق شيئًا وكل إليه من تعلق التمائم وكل إليها، ومن تعلق الودع وكل إليه، ومن تعلق على الرقى وكل إليها، ومن تعلق على الله كفاه الله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (الطلاق:٣) فالإنسان يفعل الأسباب ويعتمد على الله لا على السبب.

فالرقى جائزة والأدوية جائزة لكن مع الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. وسأله سائل، قال: يا رسول الله، إن الرقى نسترقي بها، ودواء نتداوى به، هل يرد من قدر الله شيئًا؟ قال ﷺ: هي من قدر الله الرقى والدعوات والكي كله من قدر الله سبحانه وتعالى.

كما أن التمائم شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين ويسمى الحروز، والغالب تعلق على الأولاد الصغار، وقد تعلق على الكبار، فما كان من القرآن والدعوات الطيبة لا بأس به عند جمع من أهل العلم، والصواب أنه يحرم، ولهذا قال تنازع الناس في هذا إن كان من القرآن، والصواب أنه لا يجوز حتى من القرآن لعموم الأدلة لعموم النهي عن التمائم؛ ولأن هذا قد يشتبه يعلق هذا أو هذا فيشتبه، وكان أصحاب الرسول

ومنهم ابن مسعود التمائم كلها من القرآن وغير القرآن، والأحاديث عامة تعم ذلك، من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق تميمة فقد أشرك، هذا يعم التمائم التي من القرآن أو من غير القرآن.

وقال ﷺ لرويفع بن ثابت، قال: يا رويفع لعل الحياة تطول بك، فأخبر الناس أن من عقد لحيته أو تقلد وترا أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإنه محمدًا بريء منه هذا يدل على منع عقد اللحى للتكبر، والتعاظم، هذا لا يجوز، أو عقدها للتشبه بالنساء والمخنثين، هذا لا يجوز بل يجب توفيرها، ولكن يكون على وجه ليس فيه تكبر ولا تشبه بأعداء الله، يوفرها ويربيها ويتركها كما رباها النبي ﷺ وتركها ووفرها عليه الصلاة والسلام.

وعقد اللحية محمول عند العلماء عقدها على سبيل التكبر أو التشبه بأهل التخنث والنساء هذا لا يجوز.

وهكذا إذا تقلد الأوتار والتمائم لا تجوز، فإن محمدًا بريء منه.

وهكذا لا يستنجي بالرجيع ولا بالعظم لا يُستنجي بالعظام ولا بالبعر الرسول ﷺ نهى عن هذا، وقال: إنهما طعام إخوانكم

من أهل الجن كل بعرة ذكر اسم الله عليها تكون علفًا لدوابهم، وكل عظم ذكر اسم الله عليه يكون عليه أوفر ما كان لحمًا لهم، فلا يُستنجى بالرجيع ولا بالعظام ولا بالبعر ولا بالروث ولا بالعظام.

وكان أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن، وهكذا ابن مسعود رضي الله عنه ينهى عنها ويحرمها من القرآن وغير القرآن سدًا للذريعة وعملاً بعموم الأحاديث الدالة على منع التمائم، وسدًا لذريعة التساهل في هذا والالتباس.






٧
باب من تبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما

وقول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم: ١٩-٢٠)

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط. فمررنا بسدرة ; فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السنن. قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) لتركبن سنن من كان قبلكم (رواه الترمذي وصححه).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه استمرار في ذكر الأمور الشركية، المنافية للتوحيد أو كماله.

من تبرك بشجرة أو حجر أو نحوهما، يعني ما حكمه؟ حكمه أنه كافر من تبرك بالأشجار والأحجار والأصنام صار كعباد الأصنام من جملتهم والدليل قوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ (النجم:١٩- ٢٣) فالهدى ضد ما هم عليه من عبادة اللات والعزى ومناة، اللات رجل كان يلت السويق للحاج ويطعمهم فلما مات عكفوا على قبره وعبدوه وعبدوا الصخرة، والعزى شجرة بين الطائف ومكة بنوا عليها وكانوا يعبدونها ويستنصرون بها كما قال أبو سفيان يوم أحد: لنا عزى ولا عزى لكم، ومناة صخرة بالمشلل عند قديد في طريق المدينة كان يعبدها أهل المدينة من الأوس والخزرج ومن كان حولهم، فأنزل الله فيها ذمها وعيبها ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ (النجم:١٩-٢٠) يعني أنفعت أم ضرت حتى

تعبدوها؟! والمقصود إنكار ما يعملونه عندها وأن اتخاذ الأشجار والأحجار للتبرك بها والتعلق بها وتعليق السيوف بها أو ندائها أو ما أشبه ذلك كله من أعمال الجاهلية من أعمال الشرك فلا يجوز التعلق بالأشجار ولا بالأحجار ولا بغيرها من المخلوقات ولا بالأموات وإنما الواجب التعلق بالله والاستغاثة بالله وسؤاله النصر جل وعلا.

وفي حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه أنهم خرجوا مع النبي ﷺ إلى حنين لما فرغوا من فتح مكة تجمعت هوازن وجماعة معها لقتال النبي ﷺ في حنين، ومعهم ثقيف من أهل الطائف، فخرج إليهم النبي ﷺ بعد الفتح في اثني عشر ألف مقاتل، فمروا على سدرة يتعلق بها المشركون، فمر المسلمون على هذه السدرة فقالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ يعني المشركين، فقال النبي ﷺ: الله أكبر، إنها السنن يعني أنها طرق من كان قبلكم، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة.

فهذا يبين أن اتخاذ الأصنام أو الأشجار أو الأحجار أن هذا هو الشرك الأكبر وهو عمل الجاهلية وأن الواجب الحذر من

ذلك وأن لا يتأسى الإنسان بعمل الجاهلية في اللات أو العزى أو مناة أو هبل فالتعلق على الأصنام وهي الصور المنصوبة من صور الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم أو التعلق على الأشجار هو من عمل المشركين ومن عبادة غير الله، ولو قالوا أنها لا تخلق ولا ترزق بمجرد اعتقادهم أنها تشفع لهم أو أنها تنفع أو أنها تسبب النصر كله من الشرك الأكبر، فالمشركون ما يقولون أنها تستقل بشيء، يعني يؤمنون بأن الله هو النافع الضار الخالق الرازق، ولكن يرون أنها وسائط وأنها من أسباب نصرهم ومن أسباب عزهم فتعلقوا بها، فهكذا من فعل فعلهم يكون حكمه حكمهم.

فهذا فيه التحذير من التعلق على الأشجار والأحجار وأن التعلق عليها من جنس التعلق على اللات والعزى وأنها شرك أكبر من جنس عمل عباد الأوثان.






٨
باب ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣) الآية، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ (الكوثر:٢)

قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض (رواه مسلم).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن فيه بياناً لنوع من أنواع الشرك المضاد للتوحيد، وهو القيام بفعل يبتغى فيه غير الله.

باب ما جاء في الذبح لغير الله يعني: من الوعيد والدلالة على أنه من الشرك الأكبر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي﴾

﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ (الأنعام:١٦٢) يعني قل يا محمد للناس ﴿وَنُسُكِي﴾ (الأنعام:١٦٢) يعني ذبحي وقال آخرون: معناه تعبدي، يعني النسك التعبد يدخل فيه العبادة يدخل فيه الذبح وغيره ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾ (الأنعام:١٦٢) يعني ما أحيا عليه وما أموت عليه من العبادات والأعمال ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٢) سبحانه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٣) هذه الآية تبين لنا أن الذبح عبادة لا بد أن تكون لله؛ لأن الله قال﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ (الأنعام:١٦٢-١٦٣) فدل على أنه إذا ذبح لغير الله كأن يذبح للجن أو للأصنام أو لأصحاب القبور تقربا إليهم فهو مثل من صلى لغير الله؛ لأنه قرن الذبح بالصلاة، فكما أنه لو صلى للجن أو صلى للقبور أو صلى للشمس أو صلى للقمر أو صلى للأصنام كان شركا بالله قد عبد غير الله هكذا إذا ذبح لها سواء بسواء، هذه عبادة وهذه عبادة.

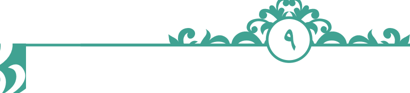
وهكذا قوله جل وعلا ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢﴾ (الكوثر:١-٢) الكوثر نهر في الجنة عظيم أعطاه الله نبيه محمد ﷺ ومنه يصب ميزابان عظيمان في الحوض يوم

القيامة حوضه ﷺ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ يعني شكرا لله على هذه النعمة الذي أعطاك الكوثر فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ يعني واذبح ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ (الكوثر:٣) يعني مبغضك هو الأبتر هو المقطوع الذليل الحقير، هذا يدلنا على أن الصلاة عبادة والنحر عبادة؛ لأن الله أمر بهما، فإذا كان النحر عبادة علم أن صرفه لغير الله شرك، كما لو صرف الصلاة، فالذي يذبح الإبل أو البقر أو الغنم أو ما هو أقل من ذلك للجن يخشى شرهم كما كانت تفعله الجاهلية ويفعله بعض الناس في الإسلام للجن خوفا من شرهم، وهكذا ذبحه للأصنام أو ذبحه للأشجار والأحجار أو ذبحه للكواكب أو لأصحاب القبور كالبدوي أو فاطمة في هذا كله شرك بالله ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾ (الكوثر:١-٢) والعبادة: ما أمر الله بها شرعا هذا أمر، والعبادة: هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، والله يحب أن يتقرب إليه بالصلاة والذبح فعلمنا من هاتين الآيتين أن الذبح لغير الله شرك بالله هذا حكمه.

الحديث الثاني: حديث علي بن أبي طالب بن عبد المطلب،

يقول حدثه رسول الله ﷺ بأربع كلمات وهذه الأربع بينها قال: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثا، لعن الله من غير منار الأرض رواه مسلم في الصحيح، هذه أربع كلمات بعضها أشد من بعض وبدأ بالأولى وهي أشد شيء وهي الذبح لغير الله؛ لأن الشرك أعظم الذنوب ولهذا بدأ به قال: لعن الله من ذبح لغير الله، فعلمنا أن الذبح لله عبادة وأن من صرفه لغير الله كالجن أو الشياطين أو أهل القبور أو ما أشبه ذلك يكون ملعونا مستحقا لهذا الذم العظيم، واللعن هو الطرد والإبعاد عن الرحمة.





٩ باب لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (التوبة: ١٠٨)

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلا ببوانة، فسأل النبي ﷺ فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم (رواه أبو داود).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه تابع للباب الذي قبله، لأن الذي قبله فيه بيان حكم الذبح لغير الله، وهذا الباب فيه منع الوسيلة المُوصلة إلى ذلك، ومنع التشبه بأهله.

باب لا يذبح لله في مكان يذبح فيه لغير الله، والحكمة في ذلك أن في ذلك تشبهًا بالكافرين ويُساء به الظن أيضاً، قد يظن أنه على دينهم وعلى طريقهم فالذبح في المكان الذي يذبح فيه المشركون يسبب شيئين أحدهما: التشبه بهم، والثاني: أن يساء الظن بالفاعل وأن يكون على دينهم وعلى طريقهم، قال الله تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ (التوبة:١٠٨) يعني مسجد ضرار الذي بناه المنافقون وأرصدوه لأبي عامر الراهب الفاسق حتى إذا جاء ينزل فيه ويحارب النبي ﷺ والمسلمين فأنزل الله في حقهم ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾

(التوبة:١٠٧-١٠٨)

هذا مسجد قباء ومسجد النبي ﷺ كلاهما أسس على التقوى، أما مسجد الضرار فقد أسس على الكفر بالله والإرصاد لأعداء الله والمحاربة للأولياء فلهذا نهي الرسول ﷺ أن يقوم فيه يعني

أن يصلي فيه، فدل ذلك على أن المحلات المعدة لمحاربة الله ورسوله لا يتعبد فيها لله بل تهدم وتزال مع القدرة محوًا لآلات الشرك وإزالة لقواعد أهله.

وهكذا المحلات المعدة للذبح لغير الله لا يباح فيها الذبح لله.

و في الباب أيضاً عن ثابت الضحاك الأنصاري أن رجلاً نذر أن ينحر إبلا ببوانة والبوانة موضع في أسفل مكة وقيل هضبة حول ينبع فسأله النبي ﷺ فقال: هل فيها وثن من أوثان الجاهلية؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا، قال: أوف بنذرك خشي ﷺ أن يكون ينذر حتى يتشبه بأعداء الله في أعيادهم فلما قيل له إن هذا المكان خال قال: أوف بنذرك؛ فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم النذر بالمعصية لا يوفى به ولا يملكه ابن آدم باطل.





١٠



باب من الشرك النذر لغير الله

وقول الله تعالى ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ (الإنسان:٧)، وقوله ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ (البقرة:٢٧٠).وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه؛ ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن النذر لغير الله فيه نوعاً من أنواع الشرك المنافي للتوحيد، وبيانه في كتاب التوحيد للحذر منه واجتنابه.

باب من الشرك النذر لغير الله، يعني باب من الشرك الأكبر النذر لغير الله، هذه أمور تقع بين العامة يقول: نذر للسيد البدوي أو للنبي أو لفاطمة إن حصل كذا أن أفعل كذا وأن أذبح كذا، فهذا من الشرك الأكبر، قال الله جل وعلا مادحًا من يوفون بالنذور

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ (الإنسان:٧)، وقال تعالى ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ (البقرة:٢٧٠)، يعني فيجازيكم عليه فجعل النذر مثل النفقة، كما أن التقرب بالمال والصدقات لأصحاب القبور أو للأوثان أو للجن أو لغير ذلك من الشرك فهكذا النذر. ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ﴾ (البقرة:٢٧٠) يعني فيجازيكم عليه.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه. كثير من الناس إذا مرض أو أصابته مصيبة قال: نذر لله إن جرى كذا وإن جرى كذا، هذا ما ينبغي مكروه أقل أحواله الكراهة، لكن متى نذر وجب عليه الوفاء، في النذر للطاعة وجب الوفاء، والله مدح الموفين بالنذور، فإذا قال لله عليّ أن أذبح كذا من الإبل أو من البقر أو من الغنم أو أن أتصدق بكذا أو أن أصلي كذا وجب عليه؛ لقوله ﷺ: من نذر أن يطيع الله فليطعه أو علقه قال: إن شفا الله مريضي فلله عليّ أن أذبح بقرة أو أن أتصدق بكذا، أو إن نجح أولادي فلله عليّ كذا،

يجب عليه الوفاء، لقوله عليه الصلاة والسلام: من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه فلو قال: لله عليّ أن أشرب الخمر هذا نذر معصية لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين عن ذلك مع التوبة.






باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

وقول الله تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن:٦).

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من نزل منْزلا فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منْزله ذلك) (رواه مسلم).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن فيه بيان نوع من أنواع الشرك الذي يتنافى مع عقيدة التوحيد، وهو الاستعاذة بغير الله، وذلك ليحذر ويتجنب مرتكبها.

نورد هذا الباب لأن كثير من الجهلة يستعيذون بالجن، وهذا

من الشرك، يقول: يا جن كذا أعيذونا من كذا، فكونا من كذا يا جن كذا افعلوا كذا، وهذا من جملة الشرك بالله، الله يقول ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ (الأعراف:٢٠٠) الاستعاذة تكون بالله جل وعلا لا بغيره ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ (الفلق:١) ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ (الناس:١) أمر الله نبيه أن يستعيذ برب الفلق ورب الناس، فالاستعاذة من جملة أنواع العبادة يجب صرفها لله وحده، فلا يستعاذ بالجن ولا بالأصنام ولا بالملائكة ولا بالأنبياء ولا بغير ذلك، ولكن يستعاذ بالله وصفاته قال تعالى ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ (الجن:٦) ذكر هذا على سبيل الذم لهم والعيب، وأن الواجب الاستعاذة بالله، فالإنسان في أي مكان يستعيذ بالله، أعوذ بالله من كذا، أعوذ بالله من شر هذا المكان وأهله..

وفي صحيح مسلم عن خولة بنت حكيم رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك.

وفي رواية لمسلم: أن رجلاً قال: يا رسول الله، ماذا لقيت من

عقرب لدغتني البارحة! قال: أما إنك لو قلت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق لم يضرك، فيشرع للمسلم التعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق فالاستعاذة تكون بالله أو بصفة من صفاته، كما في حديث: أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك أو بكلماته التامة كل هذا حق، ولا يشرع له التعوذ بغير الله.








١٢
باب من الشرك
أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

وقول الله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ﴾ (يونس:١٠٦-١٠٧). وقوله تعالى ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ (العنكبوت: ١٧). وقوله تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الأحقاف:٥).

وقوله ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل:٦٢).

وروى الطبراني بإسناده «أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

أنه ذكر فيه نوعاً من أنواع الشرك المنافي للتوحيد، وهو أن يستغاث بغير الله، أو يدعو غيره.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره» الدعاء أعم والاستغاثة أخص، والاستغاثة هي دعاء المكروب، الدعاء في الشدة يقال له: استغاثة، والدعاء أعم من ذلك، فالمعنى أن من الشرك أن يدعو غير الله في الشدة وفي الرخاء، ولهذا قال: من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره فعطف العام على الخاص، وذلك لأن دعاء الله من أهم العبادات، قال الرسول ﷺ: (الدعاء هو العبادة) فالذي يدعو أصحاب القبور أو يستغيث بهم أو يدعو النجوم أو يدعو الشمس أو القمر أو الأصنام أو الأشجار والأحجار أو الجن أو يستغيث بهم عند الشدائد قد جعلهم آلهة مع الله وقد عبدهم مع الله؛ لهذا كان هذا من الشرك الأكبر، وهو من جنس عمل المشركين مع اللات والعزى أو مناة أو مع هبل ومع غيرها من الأصنام والأوثان.

فالواجب على كل من يدعي الإسلام بل الواجب على كل

مكلف أن يحذر ذلك، وأن يخلص العبادة لله وحده لأنه خلق ليعبد الله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦) وقد أمر بهذا، قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة:٢١) والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا بهذا قال تعالى ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦) قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة:٥) والدعاء من العبادة، والاستغاثة من العبادة، قال تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (يونس:١٠٦) يخاطب نبيه ﷺ وهو معصوم لكن المقصود تحذير غيره خاطبه ليحذر غيره ذلك ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (يونس:١٠٦) هذا وصف المخلوقات كلها لا تنفع ولا تضر هذا وصف لازم لجميع المخلوقات إلا بإذن الله لا تنفع إلا بإذن الله ولا تضر إلا بإذن الله ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يونس:١٠٦) يعني المشركين، فالظلم إذا أطلق فهو الشرك قال تعالى ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة:٢٥٤) وقال تعالى

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ (الأنعام:٨٢) جاء الصحابة إلى النبي يسألونه عليه الصلاة والسلام قال: ألا تسمعون قول العبد الصالح؟ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ (لقمان:١٣) الظلم هنا هو الشرك إذا أطلق ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢) لما تجنبوا الشرك صار لهم الأمن، فهكذا قوله جل وعلا ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي دعوت غير الله، دعوت أصحاب القبور، دعوت الأصنام، دعوت الأشجار والأحجار، دعوت النجوم، دعوت الجن، أو غير ذلك ﴿فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (يونس:١٠٦) يعني حين دعوتك تكون من الظالمين المشركين

وقال تعالى ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ (النمل:٦٢) من يجيب إلا هو سبحانه، يعني: ما يجيب إلا هو سبحانه وتعالى هو الذي يجيب المضطر، هو الذي يكشف السوء، هو القادر على كل شيء جل وعلا، بيده الضر والنفع، أما المخلوق فقدرته محدودة إذا تحين قدرته محدودة فيما يستطيع. تقول: يا زيد ساعدني في إصلاح المزرعة، ساعدني في إصلاح السيارة، قد يستطيع أن يساعدك في هذا، ساعدني في

قضاء الدين يستطيع إن كان عنده مال وما أشبه ذلك تكتب له كتابًا تكلمه من طريق الهاتف من طريق التلفون لا بأس إذا كان قادرًا هذا ما هو داخل في المسائل هذه، كان الصحابة وكان غيرهم يفعلون هذا مع النبي ومع غيره عليه الصلاة والسلام، مثل ما سمعتم في قوله تعالى ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ (القصص:١٥).

وروى الطبراني وهو أبو القاسم روى بإسناده عن النبي ﷺ أن الصحابة قالوا: قوموا بنا نستغيث برسول الله فقال ﷺ: إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله.

لهذا نستفهم مما سبق بطلان الاستغاثة بغير الله، لأنه لا يجيب المضطر، ويكشف السوء النازل، ويحيي ويميت سواه سبحانه وتعالى.





وقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر:١٣)

وفي الصحيح عن أنس قال: شُج النبي ﷺ يوم أحد، وكسرت رباعيته، فقال: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟ فنَزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران:١٢٨) وفيه: «عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: اللهم العن فلانا وفلانا، بعد ما يقول سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحم د، فأنزل الله تعالى ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران:١٢٨)

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان الأدلة على بطلان الشرك، وبيان حال المدعوين من دون

الله، وفي ذلك تقرير للتوحيد بالبراهين القاطعة.

فهذا الباب بيان وإيضاح بطلان الشرك، وأنه لا يجوز الشرك بالله مطلقًا مع أي أحد من الناس، وأن الواجب إخلاص العبادة لله وحده، وأنه لو كان الشرك يجوز لأحد لكان للأنبياء؛ لأنهم أفضل الناس وخير الناس، ومع هذا الأنبياء لا يجوز أن يعبدوا من دون الله وتصيبهم مصائب وتحل بهم المصائب كما تحل بغيرهم، فوجب على المكلفين إخلاص العبادة لله وحده وأنه سبحانه هو المستحق لأن يعبد دون كل من سواه كما قال ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٦٣) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (طه:٩٨) فيقول رحمه الله: باب قول الله تعالى ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (الأعراف:١٩١) يريد بهذه الترجمة بيان بطلان الشرك من جميع الوجوه، وأن العبادة حق الله وحده لا تصرف لأحد لا للعباد ولا للرؤساء ولا للأنبياء ولا للملائكة ولا لغيرهم، كلهم عبيد لله.

قال الله تعالى ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ۚ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ (فاطر: ١٣)

القطمير اللفافة التي على النواة كلها ملك لله جل وعلا ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ (فاطر:١٤)

فالمدعون من دون الله لا يسمعون دعاءك إما جماد وإلا ميت وإلا غائب بعيد لا يسمعك وإن سمع لم يستجب ﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ ﴾ (فاطر:١٤) لأنه ما بين ميت وغائب وشجر وحجر ونحو ذلك.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ (فاطر:١٤) لأنهم عاجزون، لو سمع ما استجاب لك إلا فيما يقدر عليه، وما يقدر عليه لا بأس ليس من الشرك، إذا كان يقدر تقول له: سلفني كذا، أقرضني كذا، ساعدني في كذا، أو توكله على عمل يستطيع لا بأس، لكن تدعوه في شيء لا يستطيعه هذا هو الشرك الأكبر، أو تدعو غائبًا تعتقد أنه يسمع دعاءك وهو غائب بغير واسطة بل لاعتقاد أنه يصلح لهذا وأن هذا السر فيه، كما يظنه بعض الصوفية الهالكين هذا هو الشرك الأكبر.

عن أنس بن مالك خادم النبي ﷺ صحيح البخاري قال: شج النبي ﷺ يوم أحد، الشجة ما يقع في الرأس يقال ﴿له شجة ما

يقع في الرأس والوجه يقال له شجة وهو شج يوم أحد، قال: وكسرت رَباعيته الرباعية الضرس الرابع في الفم وكسرت البيضة على رأسه يوم أحد وأصابه نكبة عظيمة يوم أحد من المشركين فصبروا والحمد لله، قال تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ (آل عمران:١٤٠) أصابهم يوم بدر ما أصابهم، والحروب سجال تارة يدال العدو ابتلاء وامتحانًا وتارة ينصر المسلمون وهو الأغلب، فقال عند هذا ﷺ لما رأى الدم: كيف يفلح قوم شجوا نبيهم استبعد فلاحهم مع شدة بغضهم وعداوتهم له ﷺ وحربهم له، فأنزل الله﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ (آل عمران:١٢٨) الآية. يعني الأمر إلى الله هو الذي يدبر الأمور، وهو الذي قدر يوم أحد وقدر ما حصل من مصائب له الحكمة البالغة، فالأمر إليه ليس إليك يا محمد ولا غيرك.

فدل ذلك على أن الأنبياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا هذا الشاهد، وأنه لا يصلح أن يدعون من دون الله ما داموا قد يُقتلون قد يصلبون قد يجرحون قد يُغلبون فدل ذلك على أنهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، وأن العبادة حق الله وحده هذا الشاهد.



١٤ باب الشفاعة

وقوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (الأنعام:٥١) وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: ٤٤)، وقوله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ (النجم: ٢٦)، وقوله ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ (سبأ: ٢٢- ٢٣).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان المشركون يبررون ما هم عليه من الشرك من

دعاء الملائكة والأنبياء والأولياء، ويقولون: نحن نعلم أنهم مخلوقون، ولكنهم لهم جاه عند الله، فنحن نريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله، فهذا الباب لبيان إقامة الحجج على أن ذلك هو عين الشرك الذي نهى الله عنه، وأبطل كل وسيلة تؤدي إليه.

باب الشفاعة، يعني بيان الشفاعة الشرعية والشفاعة البدعية، والشفاعة التي أثبتها القرآن والشفاعة التي نفاها القرآن حتى تكون المسألة بينة واضحة وحتى يعلم ذلك كل صاحب حق وحتى تقوم الحجة على من أنكر ذلك قال الله تعالى ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ (الأنعام: ٥١) يعني أنذر الناس ولاسيما أهل الإيمان الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع أنذر بالقرآن فليس هناك ولي ولا شفيع إلا من أذن الله له من الرسل وأتباعهم، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥) ليس هناك من يشفع عند الله إلا بإذنه سبحانه وتعالى، وقال تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (الأنبياء:٢٨)، وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ (النجم: ٢٦) فالشفاعة لا بدّ فيها من شرطين؛ أحدهما: إذن الله للشافع. والثاني: رضاه للمشفوع فيه وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد والإيمان لا يرضى الكفر، قال تعالى ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ ﴾ (الزمر: ٧)، وقال جل وعلا: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ (سبأ: ٢٣).

والشفاعة العامة لنبينا ﷺ فهي لجميع الناس، تعم أهل الموقف كلهم مسلمهم وكافرهم، وهذه الشفاعة العظمى، هي الشفاعة في أن يقضى بينهم ويحاسبوا، ويقال لها الشفاعة العظمى، وهي خاصة بنبينا ﷺ، وهي المقام المحمود الذي قال الله فيه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ (الإسراء: ٧٩).

أما الشفاعات الأخرى فهي خاصة بالمؤمنين، الشفاعة لأهل

الجنة يدخلون الجنة، والشفاعة في بعض العصاة أن يخرجوا من النار، كل هذه بعد الشفاعة العظمى.

والشفاعة في العصاة لا تخصه ﷺ بل تعمه وتعم غيره من المؤمنين، فالمؤمنون العصاة لهم شفاعات.

فالخاصة به ثلاث: الشفاعة العظمى، والشفاعة لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة هذه خاصة به ﷺ، والثالثة: الشفاعة في عمه أبي طالب أن يخفف عنه، فخفف عنه بعض الشيء، فهذه ثلاث شفاعات تخصه ﷺ.

أما الشفاعة فيمن استحق النار أن يدخلها وفيمن دخلها أن يخرج منها وفي الدرجات؛ فهذه لا تخصه ﷺ، بل له ولغيره يشفع المؤمنون، تشفع الملائكة، يشفع الأفراط، يشفع النبي ﷺ، والله جل وعلا يحد لهم شفاعات يوم القيامة، يشفع فيحد الله لهم حداً من العصاة فيخرجهم من النار، ثم يشفع مرة أخرى فيحد الله له حدًا، ثم يشفع مرة ثالثة فيحد الله له حداً، ثم يشفع مرة رابعة، فيحد الله له حدًا فيخرجهم من النار ويبقى في النار بقية لم تشملهم الشفاعة، أو شفاعة الشفاعة، فيخرجهم الله من النار بغير شفاعة برحمته سبحانه،

وهم آخر من يخرج من النار لم يعملوا خيرًا قط سوى أنهم ماتوا على التوحيد، ولكن دخلوا النار بمعاصيهم وسيئاتهم؛ فيخرجهم الله من النار ولا يبقى في النار إلا أهلها، وهم الكفرة الذين حكم الله عليهم فيها بالخلود أبد الآباد؛ كما قال جل وعلا: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ (فاطر:٣٦)، وقال فيهم جل وعلا: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (البقرة: ١٦٧)، وقال فيهم سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (المائدة: ٣٧)، وقال فيهم سبحانه: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (الإسراء:٩٧)، ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبأ: ٣٠).





١٥ باب قوله تعالى
﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ (القصص: ٥٦)

وقول الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص: ٥٦).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن فيه الرد على عُباد القبور الذين يعتقدون في الأنبياء والصالحين النفع والضُّر، ذلك أنه إذا كان النبي ﷺ قد حرص على هداية عمه في حياته، فبم يتيسر له، ودعا له بعد موته، فنُهي عن ذلك، وذكر سبحانه أن الرسول لا يقدر على هداية من أحب، فهذا يدل على أنه ﷺ لا يملك ضَراً ولا نفعاً، فبطل التعلق به، لجلب النفع ودفع الضُّر، وغيره من باب أولى.

فيبين من هذا الباب ما ذكر من الآية والحديث أن الأنبياء ليس في أيديهم هداية أحد وإنقاذهم من النار، وإن هذا بيد الله عز

وجل، وإنما الذي بيد الأنبياء والعلماء والدعاة هو التبليغ والبيان والدعوة والإرشاد والنصيحة، أما هداية القلوب وتوفيق القلوب وردها إلى الصواب؛ فهذا بيد الله سبحانه وتعالى، هو الذي يهدي من يشاء ولهذا قال عز وجل: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ يعني يا محمد لا تهدي من أحببت هدايته كأبيه وأمه وعمه ونحو ذلك: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (القصص: ٥٦)

وفي صحيح البخاري رحمه الله عن سعيد بن المسيب، المسيب هو ابن حزن يقال له: المسَّيب -بفتح السين، ويقال: المسِّيب، والمشهور بالفتح المسَّيب- ابن حزن المخزومي عن أبيه المسيب صحابي قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، أبو طالب عم النبي ﷺ وكان ينصر النبي ويحوطه ويحميه وهو على دين قومه، ومع هذا سخره الله ليحمي نبيه وينصره ويحميه من أعدائه طيلة حياته وهو ينصر النبي ﷺ ويحميه ويقول:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسَّد في التراب دفينــــا

فلما حضرته الوفاة جاءه النبي ﷺ يرجو أن الله يهديه على يديه فقال: يا عم، قل لا إله إلا الله وكان عنده أبو جهل ابن هشام

من رؤوس الكفرة -قتل يوم بدر الخبيث، قتل كافرًا- وعنده عبد الله بن أبي أمية المخزومي- كان كافرًا ذلك الوقت، وقد أسلم عبد الله وهداه الله ومات على الإسلام- فقال: «يا عم، قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال له جلساء السوء: أترغب عن ملة عبد المطلب، ملة عبد المطلب الكفر بالله واتخاذ الأوثان والآلهة فأعاد عليه النبي ﷺ وقال: «يا عم، قل لا إله إلا الله» فأعادها عليه أبو جهل وعبد الله بن أمية يقولان له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فقال أبو طالب عند موته: هو على ملة عبدالمطلب، أنا على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، ختمت له بالشقاوة نسأل الله العافية، فقال النبي ﷺ: «لأستغفر لك ما لم أُنه عنك» من شدة حرصه على سلامته لأنه قد أحاطه ونصره وحماه وبذل جهودًا كبيرة، فقال لأستغفرن لك ما لم أنه عنك، فأنزل الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ (التوبة: ١١٣) فعند هذا ترك الاستغفار له.

وأنزل أيضاً في تعزية النبي وتسليته: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ

أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (القصص:٥٦) وفي هذا عبرة، فكل إنسان إذا خالفه أقاربه وعصوه قالوا: النبي ما هدى عمه، يعني لنا أسوة إذا بذلنا وسعنا واجتهدنا أن الله يهدي هذا الرجل وما هداه الله فلنا أسوة في محمد حيث دعا أبا طالب وهو عمه فلم يهتد ولم يقبل منه ولم يهده الله على يديه: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦) تسلية وتعزية، فهذا يدلنا على أن الأنبياء والرسل والملائكة والعلماء والأخيار لا يملكون شيئًا من هداية الناس، الهداية بيد الله لا يملكها نبي ولا مالك ولا عالم ولا عابد ولا غيرهم، فالهداية بيد الله هو الذي يهدي من يشاء، يعني هداية التوفيق والرضا بالحق وقبوله، هذه بيد الله جل وعلا وهي المرادة بقوله: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص: ٥٦)

وفي هذه القصة من الفوائد: الحذر من جلساء السوء؛ فإن شرهم عظيم، فهؤلاء عبد الله وأبو جهل شجعاه على الباطل، شجعاه على البقاء على دين قومه فهما من جلساء السوء، لكن الله هدى عبد الله وأسلم بعد ذلك.

ففي هذه أنه ينبغي للمؤمن أن يحذر جلساء السوء وأن يبتعد عنهم؛ لأنهم يضرونه ويهدونه إلى الباطل، فالواجب الحذر منهم، ويقول ﷺ: المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل، فالحزم والخير والواجب هو صحبة الأخيار، والبعد عن صحبة الأشرار في هذه الدار.






١٦ باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ (النساء: ١٧١).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ (نوح: ٢٣) قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابا، وسموها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت».

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: قال غير واحد من السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: لا تُطروني كما أطرت

النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله (أخرجاه).

وقال: قال رسول الله ﷺ: إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو.

ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: هلك المتنطعون قالها ثلاث.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان بعض ما يفعله عُبّاد القبور مع الأموات من الشرك المضاد للتوحيد، ولبيان السبب في ذلك، للحذر والتجنب وهو الغلو في الصالحين. باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين، يعني فاحذروا أيها الناس من الغلو الذي هلك به مَن قبلكم، فالغلو هو تجاوز الحد في المحبة، يقال غلت القدر إذا ارتفع الماء بسبب النار التي تحتها، فالغالي زاد في الحب حتى عبد محبوبه من دون الله، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ (النساء:١٧١) يعني لا تتجاوزوا الحدود، الزموا الحد الشرعي في المحبة؛ محبة الأنبياء والصالحين بالتأسي

بهم والسير على منهاجهم والعمل بما أمروا به لا بعبادتهم من دون الله، ولكن بمحبة الصالحين بسلوك مسلكهم الطيب ومحبة الأنبياء بامتثال أوامرهم وترك نواهيهم، أما العبادة فحق الله وحده ليس لأحد أن يصرفها لغيره كائنًا من كان، قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ (الحج: ٦٢)، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾(البقرة:١٦٣)، وقال سبحانه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، وقال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ (البينة: ٥)، والنهي لأهل الكتاب نهي لنا أيضاً من باب أولى، إذا كان أهل الكتاب ينهون عن ذلك فكذلك نحن ننهى عن الغلو في ديننا وهو تجاوز الحد فيما شرعه الله فالغلو في محبة الأنبياء يفضي إلى عبادتهم من دون الله، والغلو في محبة الصالحين كذلك يفضي إلى عبادتهم في دين الله، والغلو في الأوامر يفضي إلى الزيادة والبدعة.

في الحديث الصحيح يقول ﷺ: إياكم والغلو في الدين، إياكم والغلو في الدين، إياكم والغلو في الدين قالها ثلاثًا رواه الإمام

أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والمؤلف بيض له وغاب عنه اسم الصحابي والمخرج، والصحابي ابن عباس، والمخرج أحمد وجماعة بإسناد صحيح، أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: إياكم والغلو في الدين، فإنما أهلك من كان قبلكم، الغلو في الدين، وقال ﷺ: هلك المتنطعون، هلك المتنطعون، هلك المتنطعون يعني المتشددون الغالون فهذا يوجب الحذر من الغلو في العبادات وفي المشايخ وفي كل شيء، الواجب لزوم القصد في كل أمر في المحبة وفي غير ذلك، يلزم القصد وعدم التكلف فالغالي مبتدع والمقصر جاف عاص، والواجب الوسط في محبة المؤمنين والثناء عليهم بما هم أهله ومعونتهم بالخير، لكن من دون غلو، الواجب الحذر من جميع الأسباب التي تجر إلى الشرك، وكل الأسباب التي تجر إليه تسمى تنطعًا وتسمى غلو.





وقوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ (التوبة:١٢٨).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الأبواب السابقة كان البيان لحماية الرسول ﷺ شيئاً لجناب التوحيد، وأن هذا الباب بيان لحماية الرسول الخاصة.

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد أي جانبه وسده كل طريق يوصل إلى الشرك يعني: بنهيه ﷺ عن وسائل الشرك ومن ذلك قوله ﷺ في حديث أبي هريرة (لا تجعلوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم) وقوله: لا تتخذوا قبري عيدًا، هذا سدًا للذريعة لئلا يتخذوه عيدا يتكرر للمجيء إليهم

وربما غلوا فيه وكان هذا من أسباب الغلو، فنهى أن يتخذ قبره عيدًا يتجمعون إليه في السنة مرة أو مرتين أو في الشهر، لا بل متى تيسرت الزيارة زار من غير تجمعًا، يزور المسجد النبوي ثم يسلم على النبي ﷺ أما أن يتخذ الزيارات الرسمية يحصل بها التجمع فهذا هو الذي أنكره النبي ﷺ ولا أجاز لأمته فعله، والعيد هو ما يعود ويتكرر كعيد الأضحى وعيد الفطر وأشباه ذلك.

وهكذا حديث علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب يُقال له: زين العابدين، رأى رجلًا يجيء إلى فرجة عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها فيدعو، فلما رآه خاف عليه من الغلو ونهاه عن هذا الفعل، وقال له في اللفظ الآخر: ما أنت ومن في الأندلس إلا سواء، يعني فلا حاجة إلى الدخول في هذه الفرجة، ثم أخبره أنه سمع أباه عن جده ﷺ يقول» لا تجعلوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا وصلوا علي، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم «فالمصلي تنقل صلاته ويبلغها عليه الصلاة والسلام ولا حاجة إلى أن يتكلف، بل صلاته تبلغ إلى النبي ﷺ إن لله ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام.

هذا كله يدلنا على أنه ينبغي الإكثار من الصلاة والسلام عليه في الطريق في البيت في المسجد في أي مكان، وأن قبره لا يجوز أن يتخذ عيدًا يحدد له وقتًا يتجمع فيه الناس لا، بل متى تيسرت الزيارة زاره، زاره في المسجد وسلم على النبي ﷺ.






١٨ باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ (النساء: ٥١).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ (المائدة: ٦٠).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ (الكهف: ٢١)

عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: لتتبعن سَنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟ (أخرجاه).

ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: إن الله زوى لي

الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها. وأعطيت الكنْزين الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم؛ وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنة عامة، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضاً (رواه البرقاني في صحيحه).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه ببيان التوحيد وما ينافيه، أو ينقضه من الشرك، ذكر في هذا الباب أن هذا الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة، وقصد بذلك الرد على عباد القبور، الذين يفعلون الشرك، ويقولون: لا يقع في هذه الأمة المحمدية شركٌ، وهم يقولون: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان، يعني باب ما

جاء بالأدلة أن بعض هذه الأمة يسلك مسلك من كان قبله، وأنهم يعبدون الأوثان كما عبدها من قبلهم، قال جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ (النساء:٥١) وجد في الأمة من آمن بالجبت والطاغوت، فالجبت الشعر والطاغوت الشيطان، وقيل الجبت كل شيء لا خير فيه وكل بلاء يقال له جبت، الصنم جبت والطاغوت جبت، والشرك جبت، والطاغوت الشيطان.

وهكذا قوله جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (المائدة: ٦٠) فكما أن من كان من قبلنا من عبد الطاغوت فهكذا يكون في هذه الأمة من يعبد الطاغوت فهو كل ما عبد من دون الله يقال له طاغوت.

المقصود: أن دعاة الباطل يقال لهم طواغيت، فكما في الماضيين في اليهود والنصارى فهذا يوجد في هذه الأمة.

قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ

﴿عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ (الكهف:٢١) يعني قال رؤساؤهم وكبراؤهم لنتخذن عليهم مسجدًا، فهكذا في هذه الأمة من قلد المشركين وعبد القبور واتخذ المساجد عليها كما يوجد الآن في أمصار المسلمين التعلق بالقبور وعبادتها من دون الله عز وجل، وعبادة الأنبياء والصالحين، كل هذا تقليد لمن مضى واتباع لمن مضى، وسير على من مضى من المشركين.

ويدل على هذا المعنى قوله ﷺ: لتتبعن سَنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، فكما وقع في الماضين يقع في هؤلاء المتأخرين: حذو القذة بالقذة قذة السهم بقذته الأخرى.

وكثير من الناس يعبدون النبي ﷺ إذا جاؤوا إلى قبره دعوه واستغاثوا به وبعضهم يستغيث من بلاد بعيدة بالنبي ﷺ أو بالمسيح أو بعيسى أو بموسى أو بعبدالقادر الجيلاني في العراق أو بأبي حنفية في العراق، وهكذا ما يقع في مصر من عبادة الحسين والبدوي وغيرهم ممن بُلي بهم عامة الناس.







باب ما جاء في السحر

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ (البقرة:١٠٢)، وقوله تعالى ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ (النساء:٥١).

قال عمر: «الجبت السحر، والطاغوت الشيطان»، وقال جابر: «الطواغيت كهان كان ينْزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد»، وعن أبي هريرة قال أن رسول الله ﷺ قال: اجتنبوا السبع الموبقات قالوا: وما هن يا رسول الله؟، قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان السحر من أنواع الشرك، إذ لا يأتي السحر بدون

الشرك، فكان من المهم أن نعقد باباً في كتاب التوحيد، لبيان ذلك للتحذير.

باب ما جاء في السحر من الوعيد، والدلالة على أنه شرك أكبر، وأن الواجب قتل أهله؛ لأن السحرة يعبدون الشياطين ويستغيثون بهم ويستعينون بهم في إيذاء الناس فصاروا بهذا مشركين كما في حديث النسائي المتقدم: (ومن سحر فقد أشرك) وقال الله جل وعلا ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾(البقرة:١٠٢) وقبلها قوله سبحانه وتعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ البقرة:١٠٢)

من اشتراه يعني: اعتاضه، من خلاق يعني: من حظ ونصيب،

ثم قال بعدها ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة:١٠٣) دل على أن السحر ينافي الإيمان والتقوى، فالساحر قد أشرك وعبد غير الله، وعمله ينافي الإيمان والتقوى.

وقال جل وعلا ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ (النساء:٥١)

أي يؤمنون بالسحر كما قال عمر.

وقال بعضهم: الجبت معناه الشيء الذي لا خير فيه كالصنم ونحو ذلك مما لا خير فيه، فالمعبودات من دون الله تسمى جبتًا، والسحر يسمى جبتًا، وكل شيء لا خير فيه يسمى جبتًا.

وثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات.

وعن جندب يروى ابن بن عبد الله الأزدي ويروى جندب

الخير، يروى مرفوعًا عن النبي ﷺ أنه قال: حد الساحر ضربه بالسيف.

والآية تدل على ذلك، تدل على كفر الساحر، وأنه عبد لغير الله، والواجب قتله لعظم شره، فلا يستتاب؛ لأن شركه خفي فلا يستتاب؛ بل يقتل، وإن كان تائبًا فيما بينه وبين الله صادقا تاب الله عليه، فيما بينه وبين الله، لكن في الدنيا يقتل حماية للمسلمين من شره وفساده.








باب بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض، والجبت: قال الحسن: «رنة الشيطان» (إسناده جيد ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد. (رواه أبو داود، وإسناده صحيح).

وللنسائي من حديث أبي من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

إنه لما سبق من ذكر قبل هذا الباب للسحر، كان لزاماً ذكر شيء من أنواعه، لكثرة وقوعها، ولخفائها على الناس، حتى ظنوها من كرامات الأولياء، وآل بهم الأمر إلى أن عبدوا أصحابها، فوقعوا في الشرك العظيم.

باب بيان شيء من أنواع السحر على سبيل الإطلاق والتعميم، قال أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف حدثنا حيان -قال غير مسدد حيان بن العلاء- حدثنا قطن بن قبيصة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الجبت السحر والمعنى أن هذه تطلق على أنها يقال لها سحر من جهة ما فيها من الشر والفساد، ومن جهة ما قد يدعيه أصحابها من علم الغيب، والعيافة: زجر الطير كما قال عوف زجر الطير، يزجرون الطيور ويزعمون أنها تدلهم على شيء، فيتشاءمون بها تارة ويتايمنون بها تارة أخرى، وهذا من عمل الجاهلية، والطيور ليس عندها خير ولا شر، وإنما هذا من جهلهم وضلالهم، وقد يتشاءمون بالغراب أو بالبومة أو بغيرهما ،وإذا

رأوا حيوانًا حسن الخلقة تيمنوا به وقالوا هذا سفر طيب أو هذا مخرج طيب إذا صادفهم فيه هذا الشيء، وإن صادفهم حيوان قبيح أو نعق الغراب أو كذا خافوا وقالوا هذا سفر أو هذا مخرج قد يكون فيه شر، هذا كله من أمر الجاهلية، وهذا زجر الطير.

والطرق: الخط يخط في الأرض، يخطون خطوطا ويقولون هذا يكون كذا ويكون كذا، ويلبسون على الناس، فقد يكون عبثا في بعض الأحيان من اللاعبين، وقد يكون تخييلا، وإلا فالمراد خدمة الشياطين والأخذ بأقوالهم من الجن ويزعمون أن هذه الخطوط تأتيهم إلى كذا وترشدهم إلى كذا وهو كذب، وإنما هو طاعة الجن واستخدامهم ودعوى علم الغيب بواسطتهم. وإلا فهذه الخطوط لا تخبرهم شيئا لولا ما يعملون مع الجن.

والجبت يقال له: رنة الشيطان، وأما الطيرة: فهي التشاؤم من مرئي أو مسموع، هذه الطيرة وهي محرمة ومن الشرك الأصغر، وقد تكون أكبر والعياذ بالله إذا اعتقد أن هذا الطائر أو هذا الحيوان يتصرف في الكون أو يدبر أشياء أو ما أشبه ذلك هذا من الشرك الأكبر، لكن الغالب عليهم أنهم يتشاءمون بها فقط.

فالحاصل أن هذه الأشياء من عمل الجاهلية، وهي منكرة، وهي من الجبت، بيّن الجبت أنه السحر كما قال عمر، وقيل: الجبت الشيء الذي لا خير فيه، وهو الباطل، وقيل: الجبت إنه الصنم المعبود من دون الله، وقيل غير ذلك، والحاصل أن الجبت هو الشيء الذي لا خير فيه، وهو الشيء الباطل الذي لا فائدة فيه ولا خير فيه، فالمعنى أنها من الشيء الذي لا خير فيه بل فيه الشر، والمقصود من هذا الزجر عن هذه الأشياء والنهي عنها، وألا يتأسى بالجاهلية فيها؛ فإن الجاهلية أخطؤوا فيها وغلطوا، وليس في زجر الطير فائدة، ولا في الخط فائدة، ولا في الطيرة فائدة، كلها باطلة، فالطيور ليس عندها شيء وإن زجروها وإن تيامنت أو تشاءمت، والخطوط لا فائدة فيها، وإنما يلبسون على الناس باتباع الجن والأخذ بأقوال الجن والشياطين، والطيرة لا خير فيها ولا فائدة، وإن زعموا بها فائدة فهي باطلة.

وقال تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ (الفلق:١-٤) وهن السواحر فالسحر قسمان: قسم يكون بالعقد والنفث والأدوية التي تضر وهذا موجود

وله وجود وقسم يكون بالتخييل والتلبيس والتزوير كما قال تعالى عن أصحاب فرعون ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ (طه:٦٦) وقال في آية أخرى ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:١١٦) سماه سحرا عظيما لما فيه من التلبيس والتخييل والتزوير على الناس والتلبيس عليهم ومن سحر فقد أشرك، من تعاطى السحر فقد أشرك لأنه يقوم بعبادة الشياطين عبادة الجن والتعلق عليهم ودعائهم والاستغاثة بهم والنذر لهم والذبح لهم فيقع الشرك بذلك ولهذا قال تعالى ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ (البقرة:١٠٢) فدل على أن تعلم السحر يوجب الكفر.

لذا وجب التحذير والاحتياط من بعض التصرفات التي قد تدخل المسلم في دائرة الشرك الأكبر او الأصغر والعياذ بالله.







باب ما جاء في الكُهان ونحوهم

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه لم تقبل له صلاة أربعين يوماً.

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ (رواه أبو داود).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان الكهان ونحوهم يدعون علم الغيب الذي قد اختص به الله تعالى، وذلك دعوى مشاركة الله تعالى في علم الغيب، وكان هذا الباب لبيان ما جاء في حقهم وحق من صدقهم من الوعيد.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم، يعني من العرافين والمنجمين

والرمالين ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور الغيبية.

روى مسلم في صحيحه يعني الإمام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله أبو الحسين في كتابه الصحيح عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة هكذا رواه مسلم في الصحيح: من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة بدل يومًا.

وقوله: صدقه، كأن هذه من بعض النساخ غلط من بعض النساخ، والذي في رواية مسلم ليس فيها صدقه مجرد سؤال فقط، من أتى عرافًا فسأله عن شيء، أما إذا صدقه فالأمر أكبر كما يأتي.

لكن متى سأله كان في هذا السؤال في هذا الوعيد الشديد لم تقبل له صلاة أربعين ليلة، هذا وعيد شديد، وإن كان لا يؤمر بالقضاء لكنه متوعد بعدم قبولها، وعدم حصول الأجر له منها.

ذكر النووي رحمه الله وغيره اتفاق العلماء على أنه لا يقضي صلاته فصلاته صحيحة، لكن لا يحصل له فضلها.

وجاء من حديث عمران بن حصين: ليس منا من تطير أو

تطير له أو تكهن أو تكهن له أو سحر أو سحر له يعني يجب أن يحذر ذلك فلا يفعله بنفسه ولا لغيره.

والكاهن: هو الذي يدعي المغيبات، وقيل: يدعي معرفة ما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية شيخ الإسلام: العرّاف اسم للجميع، اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في هذه الأمور بهذه الطرق الشيطانية يسمى عرافًا ويسمى كاهنًا ويسمى منجمًا.

فالواجب الحذر منهم جميعهم وعدم تصديقهم سواء سمي عرافًا أو كاهنًا أو منجمًا أو رمالاً أو غير ذلك ما دام يتكلم في هذه الأمور الغيبية بطرق الخط أو طرق النظر في النجوم أو الحدس والخرص أو ما أشبه ذلك، كلهم يجب الحذر منهم ويجب الإنكار عليهم، ويجب على ولاة الأمور معاقبتهم حتى ينتهوا عن هذا الأمر المنكر، ومن صدقهم في دعوى علم الغيب فهو كافر مثلهم، من ادعى علم الغيب كفر، ومن صدقه كفر.

◆ ◆ ◆




٢٢

باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في صحيحه: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وكلف ما لا علم له به».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان بعض التنجيم باطلاً، لما فيه من دعوى مشاركة الله في علم الغيب، وتعلق القلب بغير الله، ونسبة التصرف إلى النجوم، وذلك ينافي التوحيد، فكان من المناسب أن يعقد له باب هنا يبين فيه الممنوع والجائز منه، ليكون المسلم على علم وبصيرة من ذلك.

لما كان التنجيم شائعًا بين الناس، وله من يتبعه، ويبني عليه

أشياء ذكر هذا في كتاب التوحيد تنبيهًا على بطلان التنجيم، والتنجيم مصدر نجم ينجم تنجيمًا يعني حزر، وحدث فيما يعتقده في النجوم، والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، يسمى تنجيمًا، يعني: النظر في النجوم، واستماعها، واستراقها، وطلوعها، وغروبها، وتقاربها، وتباعدها، يستدلون به على أنه يقع كذا في الأرض، ويقع كذا، ويقع كذا، وهو باطل، وهو من دعوى علم الغيب الباطلة التي أبطلها الله في قوله سبحانه ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ (النمل:٦٥)، وفي قوله سبحانه﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (هود:١٢٣)، الآية، المقصود: أن التنجيم من دعوى علم الغيب، وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية هذا هو المقصود وهو لبيان التحذير منه، أما النظر في النجوم من باب التفكير، من باب منازل القمر؛ حتى تعلم الأوقات أوقات الصلوات، وحتى تعلم القبلة، وتعلم الطرقات، هذا لا بأس به كما قال أحمد، وإسحاق، وإن كرهه قتادة، وكرهه ابن عيينة، ولم يروا التفصيل، لكن الصواب جواز تعلم المنازل؛ لمعرفة جهات القبلة في الأسفار،

والبلدان، ولمعرفة أوقات الصلوات عند الغيم، وعند الحاجة إلى ذلك، هذه أمور لا بأس بها، ولأوقات الحراثة والفلاحة التي يحصل بها كذا في وقت كذا، أو في وقت كذا، وهذا لا بأس به.

قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك، وزعم أنها تدل على كذا، أو كذا من علم الغيب فقد أخطأ، وأضاع نصيبه من الآخرة، وتكلف ما لا علم له به، قال الله جل وعلا ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ (الملك:٥)، وقال تعالى ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦)، وقال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام:٩٧) هذا هو علم المنازل للتسيير، هذه من فوائدها، وأما الاستدلال بها على أنه يولد كذا، ويكون موت كذا، ويزول ملك كذا، ويحدث كذا، هذا كله لا أصل له، بل هو باطل، ولهذا قال: وكره قتادة -المذكور- تعلم المنازل، منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه ورخص بتعلم المنازل أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوية،

وذلك لا بأس به كما تقدم فإن منازل القمر، والشمس يعرف بها الأوقات، أوقات الصلوات، وجهات القبلة، وجهات الرياح، وطرق البلاد، وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعلا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ (الأنعام:٩٧) والمصدق بالسحر فهذا هو الذي يدخل الكفر إذا صدق بأن السحر حق، وأنه يغير كذا، ويغير كذا، وأن صاحبه على حق، وأنه مصيب، أو أن صاحبه يعلم الغيب فهذا يكون كفرًا، ويكون صاحبه ضالًا، وكافرًا، أما إذا صدق بأنه موجود، وأن له تأثير، ولكنه حرام، ومنكر فهذا لا حرج عليه، السحر موجود، وقد أخبر الله عن وجوده.

قال ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ (البقرة:١٠٢) فالسحر موجود، ولكنه مما يتألف من خدمة الشياطين، وعبادتهم من دون الله فالذي يصدق به، ويرى أنه صواب، وأنه دين، وأنه جائز، ولو كان فيه شركًا أكبر، وعبادة الشياطين هذا يكون كافرًا، والعياذ بالله فلهذا توعد بعدم دخول الجنة.

أما من اعتقد وجوده، وأنه موجود، لكنه منكر، يجب محاربته،

ويجب القضاء عليه، ومحاربة أهله، وقتلهم هذا هو الحق، فإن السحرة يجب قتلهم، ولا يستتابون لفسادهم في الأرض كما تقدم في الباب.









باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قول الله تعالى ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢)

وعن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان نسبة نزول المطر إلى النوء على وجه الاعتقاد أن له تأثيراً في نزوله شركاً أكبر، كاعتقاد جلب النفع أو دفع الضُر في الأموات والغائبين، أو شركاً أصغر إن كان لا يعتقد أن لها تأثيراً، وإنما هي أسباب لنزول المطر، لذا كان مناسباً أن يعقد له باباً في كتاب التوحيد للحذر منه.

في بيان تحريم الاستسقاء بالنجوم؛ وأنه من عمل المشركين،

والنجوم ليس لها تصرف في إنزال المطر ولا في غيره، وإنما الله خلقها لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يهتدى بها كما تقدم.

فلا يجوز الاعتقاد فيها غير ذلك من أنها يحصل بها السقيا أو غير ذلك، بل يجب الحذر من عمل الجاهلية، وقد أنكر الله عليهم ذلك بقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة:٨٢) يعني حظكم ونصيبكم من شكر الله أنكم تكذبون أنه من الله وتنسبونه إلى غيره: ﴿أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨١-٨٢) يعني حظكم من كتاب الله وما جاء به رسوله من العلم تكذيبكم بذلك وإنكاركم لإنزال المطر من عنده جل وعلا.

يقول النبي ﷺ: أربعة في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة يعني على الميت يعني أن الغالب أن الأمة يقع فيها هذا البلاء، إلا من رحم الله من أهل الإيمان والتقوى، الفخر بالأحساب كل واحد يفخر بأبيه وجده.

والطعن في أنساب الناس تنقصها والاستسقاء بالنجوم سقينا

بنجم كذا سقينا بنجم كذا أو تدعا وتسأل من دون الله.

والنياحة على الميت كذلك من أمر الجاهلية، وقال: النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب هذا وعيد عظيم نعوذ بالله من ذلك، وهذا يفيد الحذر من النياحة، وأن الواجب على من وقع منها شيء أن تتوب إلى الله.

والنياحة: رفع الصوت على الموت، الصياح على الميت، أو شق الثوب، أو خمش الوجه أو ما أشبه ذلك.

يقول ﷺ: ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية، ويقول ﷺ: أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة، الصالقة التي ترفع صوتها عند المصيبة، والحالقة التي تحلق شعرها، والشاقة تشق ثوبها، كل هذا من الجزع، فالواجب الحذر من ذلك، والحذر من جميع خصال الجاهلية إلا ما أقره الإسلام.

وهكذا حديث زيد بن خالد الجهني أن النبي ﷺ خطبهم بعد صلاة الفجر يوم الحديبية حين صلح الحديبية مع أهل مكة، على إثر مطر من الليل فلما سلم من الصلاة خطبهم وأخبرهم: أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال: قال:

أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب، فهذا فيه التحذير من هذه العبارة أن لا يقال مطرنا بنوء كذا وكذا، أو بنجم كذا بل مطرنا بفضل الله ورحمته، أما إذا قال مطرنا في نجم كذا في وقت كذا في الشتاء؛ فهذا إخبار عن الظرف عن الوقت، أما الباء تقتضي السببية فلا يجوز؛ لأن الله ما جعلها أسبابًا؛ فنسبة الشيء إليها غلط ومنكر، وسماه الرسول ﷺ كفرًا، فإذا كان يعتقد أنها هي التي تنزل المطر أو لها تصرف في الكون صار شركا أكبر، وإن كان لم يعتقد ذلك فهو كفرٌ أصغر، مثل: ثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب والنياحة على الميت، لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض من الكفر الأصغر.

وإذا اعتقد أن لها تصرفاً في الكون، أو أنها تسبب نحسًا لقوم أو شرًا لقوم أو خيرًا لقوم فهذا كفرٌ أكبر، فالواجب الحذر من خصال الجاهلية وعدم التأسي بهم في ذلك.





باب قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ (البقرة:١٦٥)

قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) وقوله تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (التوبة:٢٤)

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين (أخرجاه).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام، فبكمالها يكمل دين الإنسان، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، لذا وجب

التنبيه في هذا الباب. باب قول الله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ (البقرة:١٦٥) يبين سبحانه وتعالى أن بعض الناس يتخذ أندادًا من دون الله من الأصنام والأشجار والأحجار والأنبياء والملائكة والجن وغير ذلك يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهَ يعني: يحبونهم محبة العبادة كَحُبِّ اللَّهَ يعني: كحبهم إلى الله أوَ كحبهم الله على أحد التفسيرين، والمقَصود بهذا بيان أن هؤلاء المشركين ضلوا في هذا السبيل حيث أحبوا مع الله غيره محبة عبادة فخضعوا لهم وعبدوهم بالنذور والذبائح والدعاء وغير ذلك، والواجب عليهم أن تكون محبتهم لله وحده خالصة؛ لأنها محبة عبادة تقتضي إيمانهم به، وتقتضي طاعة أوامره، وترك نواهيه إلى غير ذلك.

أما محبة غيره فتكون تابعة لمحبته، يحب الرسل لله لأنهم رسل الله، يحب المؤمنون في الله لأنهم أولياء الله أطاعوه، هذه المحبة لله وفي الله، أما حب العبادة فهذا خاص بالله وهي محبة الخضوع والذل والاستكانة والطاعة والامتثال، هذا خاص به جل وعلا يكون لغيره.

فيجب على العبد أن يحب الله محبة صادقة تقتضي إخلاص العبادة له واتباع شريعته وطاعة أوامره التي جاء بها رسله وترك نواهيه، بخلاف أهل الشرك فإنهم أحبوا أندادهم كحب الله كما أحبوا الله، بل بعضهم زاد حبه لأنداده أكثر من حب الله، فصاروا يعبدون أندادهم ويخلصون لهم الدعاء وينذرون لهم ويسجدون إلى قبورهم ويتقربون إليهم بالذبائح والنذور، ولو قيل لهم: افعلوا هذا لله، وضعفوا؛ فصارت محبتهم لأندادهم أشد وبعضهم يجرأ على الحلف بالله كاذبًا ولا يجرأ على الحلف بشيخه ومعبوده من دون الله كاذبا، ويقول: إنه أسرع انتقاما من الله لي، وما أشبه ذلك مما يقوله أعداء الله الذين ابتلوا بالشرك بالله وتعظيم محبة الغير على محبة الله سبحانه وتعالى.

أما المحبة الطبيعية التي طبع الله العباد عليها كمحبة ما يناسب الإنسان من أكل وشرب أو نساء أو أولاد، فهذه محبة لا تقدح في حب الله ولا تضر محبة الله إذا لم يؤثرها على محبة الله، إذا كانت لم تضر محبة الله، ولم تضر محبة أوليائه، ولكنها محبة طبيعية تقتضي موجباتها من الإحسان

إلى الأولاد، من الإحسان إلى الزوجات، من قضاء الوطر والإنفاق إلى غير ذلك، فإذا زادت محبة الأولاد والأهل ونحو ذلك حتى صارت قادحة في محبة الله ومضرة بها بأن أطاع أهله أو ولده أو إخوته أو أصدقاءه أطاعهم في معصية الله، كان تلك المحبة مؤثرة في حب الله ومنقصة الإيمان ومضعفة للإيمان بقدر ما آثرها على محبة الله عز وجل، ولهذا قال النبي ﷺ: إنما الطاعة بالمعروف.

فهذه المحبة للأهل والأولاد لا بد أن تكون مقيدة بطاعة الله ورسوله، لا تزيد على ذلك، ولا تخرج عن ذلك، فإذا خرج في حبه لزوجته أو لأبيه أو لأمه أو لأصدقائه عن ذلك حتى أطاعهم في معصية الله صارت هذه المحبة قادحة في إيمانه ومضعفة لإيمانه وقادحة في محبته لله سبحانه وتعالى.

وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين. هذا يدل على وجوب محبة الرسول ﷺ محبة تليق به عليه الصلاة والسلام، تقتضي اتباعه وطاعة أوامره وترك نواهيه، هذا هو الواجب، وليست محبة عبادة، العبادة حق الله وحده، ولكنها محبة طاعة

وامتثال وإيمان بما جاء به من الرسالة، واتباعا لشريعته التي جاء بها عليه الصلاة والسلام، فتكون محبة الرسول ومحبة الرسل جميعا والمؤمنين كلها تابعة لمحبة الله عز وجل؛ لأنهم أولياؤه، ولأنهم رسله، ولأنهم بلغوا فنحبهم لذلك ونطيعهم فيما جاءوا به ونترك ما ينهون عنه؛ لأنهم رسل الله ويبلغون عن الله، ولا نعبدهم لأنهم آلهة، لا نعبدهم مع الله، ولا ندعوهم مع الله، ولا نذبح لهم، ولا ننذر لهم، لا، بل ذلك حق الله وحده سبحانه وتعالى.





وقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ (التوبة: ١٨)

وحديث أبي سعيد يقول ﷺ: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان الخوف من أجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى، ووجب التنبيه بهذا الباب على وجوب إخلاصه لله.

باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا

تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٧٥) كان بيان هذا الباب لبيان وجوب خوف الله تعالى، وأن الواجب على العبد أن يخاف ربه خوفا يحمله على إخلاص العبادة له سبحانه، ويحمله على أداء ما فرض عليه، ويحمله عن الكف عما حرم الله عليه، ويحمله على الوقوف عند حدوده، هذه فائدة الخوف أن يكون خوفًا حقيقيًا يحمله على أداء الفرائض وترك المحارم والوقوف عند حدود الله والإخلاص له في العمل، والخوف أقسام ثلاث: أحدهما: الخوف من الله وهو أوجبها وأعظمها، ويجب إخلاصه لله، وهذا صرفه لغير الله شرك، فمن خاف غير الله من أصنام أو أوثان أو أشجار أو أحجار يعتقد فيها أن لها تصرف، وأنه يخاف شرها، فهذا من الشرك.

القسم الثاني: خوف يحمل على فعل المعصية أو ترك واجب من المخلوقين خوف المخلوقين على هذا الوجه فهذا لا يجوز وفيه نزل قوله تعالى﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٧٥) أو يحمله الخوف على عدم الجهاد، على عدم أداء الواجب، إلى غير ذلك، بل يجب عليه أن يخاف الله، وأن يراقب الله، وإذا خاف المخلوقين فليكن خوفه من المخلوق بحدود شرعية، خوفا

يحمله على ما شرع الله، وعلى ما أباح الله فقط، ولا يحمله على المعاصي، فالخوف من المخلوق من الأشياء الطبيعية والأشياء الحسية جائز؛ كخوفه من اللصوص فيغلق بابه أو يضع حارسا عند بابه أو في مزرعته أو نحو ذلك، لكن لا يجوز أن يحمله هذا الخوف على فعل المعاصي أو ترك الواجبات، فإذا خاف من مخلوق خوفا يحمله على أن يدع الجهاد الواجب أو على أن يعصي لخوف الناس أو لسبب الناس أو بترك ما أوجب الله صار خوفا محرما؛ لأنه جره إلى ما حرم الله.

النوع الثالث: نوع طبيعي عادي لا يحمله على فعل محرم ولا على ترك واجب، كخوفه من الحية والعقرب وأشباه ذلك فيتجنب ذلك. وخوفه من اللص فيغلق بابه وأشباه ذلك، هذا خوف جائز لا محذور فيه إذا لم يحمله على ما حرم الله، ولم يحمله على ترك ما أوجب الله.

ففي حديث أبي سعيد يقول ﷺ: إن من ضعف اليقين – يعني من ضعف الإيمان، اليقين هو الإيمان كله– إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله. هذا من ضعف الإيمان إرضاء الناس بسخط

الله في المعاصي، هذا من ضعف الإيمان، كذلك حمدهم على رزق الله الذي ساقه الله إليك احمد الله واشكره. وإذا فعلوا لك معروفا هم يشكرون على معروفهم ويجازون؛ لكن الحمد كله لله وحده، هو الذي هداهم، هو الذي جعلهم يحسنون إليك، هو الذي جعلهم يبذلون المعروف فتشكر الله أولا وتحمده وتخصه بذلك وتشكر المخلوقين على قدر إحسانهم يشكر الله فيشكرون على قدر إحسانهم، ويثنى عليهم ويكافؤون؛ لكن يكون في قلبك حمد الله أعظم وشكر الله أكبر؛ لأنه المسبب فهو الذي هداهم.

روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئا» فعلى المؤمن أن يأخذ بالحزم وعليه بالجد، فيلتمس رضا الله وإن سخط الناس، ويبتعد عن رضا الناس بسخط الله، ولو رجى معروفهم أو إحسانهم؛ فالأمر إلى الله سبحانه وتعالى، فيلتمس الخير من عند الله، وليأخذ بالأسباب الشرعية، ولا يضره كونهم سخطوا أو رضوا، الواجب أن يقدم حق الله ويلتمس رضاه، وأن يبتعد عن إرضاء الناس بسخطه سبحانه وتعالى.



٢٦ باب قوله تعالى

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة: ٢٣)

وقوله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ (الأنفال:٢)، وقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٤)، وقوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ (الطلاق: ٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (رواه البخاري والنسائي).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب لبيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله، ولأنه من أفضل العبادة، وأعلى مقامات التوحيد.

قول الله تعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ (المائدة:٢٣) وما جاء في معناها، وكان هذا الباب الترجمة لبيان وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جميع الأمور في أمور الدنيا والدين جميعا، والتوكل هو التفويض إلى الله والثقة.

وهكذا قوله جل وعلا ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال:٢) وهكذا قوله سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ (الطلاق:٣) وقوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (الأنفال:٦٤) كل هذا يدل على وجوب التوكل، فإن حسبك الله يعني: كافيك الله، وكافي أتباعك من المؤمنين، وهكذا قوله ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ (الطلاق:٣) يعني: كافيه عن كل أحد، ومن كفاه الله ما أهمه لم يحتج إلى أحد، فالواجب على المؤمن أن يتوكل على الله، وأن يضرع إليه؛ ولكن لا يمنعه هذا من تعاطي الأسباب، فيعمل بطاعة الله، ويدع معاصي الله؛ لأن هذه أسباب الجنة، فيأكل ويشرب لأنها أسباب حياته، ويتجنب المؤذيات التي تضره كوقوعه في النار أو إلقائه نفسه في الآبار أو لتعرضه

للسباع أو أكله ما يهلكه كالسموم أو ما أشبه ذلك، فعليه أن يتعاطى الأسباب النافعة، وأن يحذر الأسباب الضارة، كل هذا مع التوكل به سبحانه، والإيمان بأنه مسبب الأسباب، وأن كل شيء بيده، وأن ما شاءه كان، وما لم يشأ لم يكن. وهكذا محمد عليه الصلاة والسلام لما جرى ما جرى يوم أحد من غزوة كفار أهل مكة واجتماعهم عند المدينة وحصارهم المدينة، ثم خروج النبي إليهم عليه الصلاة والسلام، وحصول الوقعة، وقتل فيها من قتل من الصحابة، وجرح من جرح، ثم انشمر الكفار إلى بلادهم فقال المشركون: إنهم قد جمعوا لكم، وجاء بعض المرجفين وقالوا: إنهم قد جمعوا لكم، وأنهم ليسوا مضوا بل هم يجمعون ويعدون العدة ليعودوا، فقال النبي عند ذلك حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ (آل عمران:١٧٣) هكذا ينبغي لأهل الإيمان أن يقولوها عند الشدائد، ولكن لا تمنعهم من إعداد العدة، فالنبي ﷺ قالها ومع ذلك أعد العدة، وأمر المسلمين أن ينهضوا لقتال عدوهم على ما بهم من الجراح والتعب، أمرهم أن ينهضوا، وأن يقاتلوا عدوهم؛ لكن عدوهم ألقى الله في

قلبه الرعب وانشمر إلى مكة ولم يعد إليهم.

المقصود أن هذا يوجب على المؤمنين الأمرين جميعا: الثقة بالله والاعتماد عليه، مع الأخذ بالأسباب والعناية بالأسباب، كإعداد السلاح، وإعداد القوت من الطعام والشراب، وفعل ما ينفعهم، ولهذا لما كان يوم الأحزاب ولما رجع الكفار يوم الأحزاب بعد أحد بسنتين أعدوا عدة عظيمة، وأعدوا لعدوهم وحفروا الخندق حول المدينة؛ لأنه من أسباب تعويق الكفرة من دخول المدينة، فهذه الأسباب التي فعلها الرسول ﷺ، لبس درعين يوم أحد، وحمل السلاح، وجعل البيضة فوق رأسه تقيه السلاح، وهكذا الصحابة حملوا السلاح وقاتلوا، قال تعالى﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:٦٠) وقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾ (النساء:٧١) فهذا كله من الأسباب مع الثقة بالله والتوكل عليه.





وقوله تعالى: ﴿ومن يَقنط مِن رَحمة ربِّه إلا الظَّالون﴾ (الحجر: ٥٦)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: (**الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله**).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن الأمر من مكر الله، والقنوط من رحمة الله من أعظم الذنوب، وأن كلاً منهما ينافي كمال التوحيد، وأنه يجب على المؤمن أن يجمع بين الخوف والرجاء.

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ (الأعراف:٩٩)، وقوله سبحانه ﴿ومن يَقنط مِن رَحمة ربِّه إلا الظَّالون﴾ (الحجر: ٥٦) الله جل وعلا حذَّر

عباده من الأمن من مكره والقنوط من رحمته، فالواجب على أهل الإيمان أن يجمعوا بين الخوف والرجاء، أن يخافوه ويرجوه سبحانه وتعالى، فلا قنوط ولا أمن، بل يجب أن يُرجى لكمال إحسانه وكمال جوده وكرمه، ويجب أن يُخاف لعظيم انتقامه وشدة بطشه، وفي حديث ابن عباس المروي عنه أن النبي ﷺ بيَّن أن من الكبائر اليأس من رَوح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، فالواجب على المؤمن أن يحذر ذلك.

وهكذا ما جاء من أثر ابن مسعود: أكبر الكبائر اليأس من رحمة الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من رَوحه سبحانه وتعالى، والأمن من مكره جل وعلا، كل هذه الكبائر يجب الحذر منها: الأمن والقنوط واليأس من رحمة الله والمكر والخداع، يجب على المؤمن أن يكون ذا إنصاف وذا عدل وذا عناية بالحق ورحمة وعطف، وأن يكون عظيم الخوف من الله شديد الحذر من عقابه جل وعلا بعيدًا عن صفات المنافقين من الخداع والاستهزاء والمكر.

◆ ◆ ◆



٢٨
باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن:١١)

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان وجوب الصبر على الأقدار، وتحريم التسخُّط منها، لأن ذلك ينافي كمال التوحيد.

قال النبي ﷺ: (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى

إذا أحب قوما ابتلاهم؛ فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط) (حسنه الترمذي).

هذا الباب لبيان أمر عظيم وهو وجوب الصبر على المصائب فالإنسان في هذه الدار يبتلى، يبتلى بموت بعض أقاربه بزوجته يبتلى في ماله يبتلى في نفسه فلا بدّ من الصبر، والله يقول ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾

(محمد: ٣١)

ويقول جل وعلا ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف:٩٠)

ويقول جل وعلا ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ (آل عمران:١٢٠)

ويقول سبحانه وتعالى ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦)، ويقول سبحانه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر:١٠)

ويقول ﷺ: ما أعطي أحد عطاء خير وأوسع من الصبر، فمن الإيمان بالله يعني من شعب الإيمان الصبر على أقدار الله وعدم السخط وعدم الجزع، فالصبر واجب عند المصائب، سواء

كانت المصيبة مرضًا أو موتًا أو غير ذلك، قال الله جل وعلا: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (التغابن: ١١) يبين سبحانه أن المصائب بإذنه جل وعلا، ما أصاب من مصيبة من مرض أو موت أو غير ذلك إلا بإذن الله.

يقول ﷺ: أربعة في أمتي من أمور الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن بالأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة على الميت رواه مسلم في الصحيح، هذه من سجايا الناس الطعن في أنساب الناس، وهذه من خصال الكفر الأصغر، فيجب على المؤمن أن يحذر هذا العمل السيئ وهو الطعن في أنساب الناس؛ لأن هذا يسبب الشر والفتنة والتنقص قد يترتب عليه فتن.

والنياحة على الميت كذلك فيها نوع من السخط وعدم الرضا وعدم الصبر فلا ينوح بل يصبر ويحتسب.

يقول ﷺ: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، كلما عظم البلاء عظم الجزاء، وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط، ويقول ﷺ: أشد الناس بلاء

الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في الأذى، ولهذا لما كان الأنبياء والرسل أكمل الناس إيمانًا، كانوا أشدهم بلاء عليهم الصلاة والسلام.






٢٩ باب ما جاء في الرياء

باب ما جاء في الرياء، وقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ (الكهف: ١١٠)

وعن أبي هريرة مرفوعا: قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد مرفوعا ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى، قال: الشرك الخفي؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل. (رواه أحمد).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان الرياء مخلاً بالتوحيد ومحبطاً للعمل الذي قارنه،

كان من المناسب أن ننبه لهذا في هذا المحل هذا الباب للتحذير من الرياء في الأعمال؛ لأن الصالحين قد يبتلون بالرياء كثير من الناس قد يبتلى بالرياء في صلاته أو قراءته أو غير هذا من شؤون دينه، فكان هذا الباب لبيان تحريم ذلك، والتحذير منه، وأن الواجب على كل مؤمن ومؤمنة الإخلاص لله في أعماله من صلاة وصوم وقراءة وغير ذلك، وأن يحذر التشبه بالمنافقين في الرياء بالأعمال.

باب ما جاء في الرياء يعني: باب ما جاء في حكمه وبيان خطره، والرياء مصدر راءى يرائي رياءً، يعني: راءى الناس بعمله كأن يصلي الضحى أو شبه ذلك ليثنى عليه ويقال إنه يصلي، أو يأتي الجماعة لأجل أنه يثنى عليه أو يقرأ ليثنى عليه أو ما أشبه ذلك من أعمال الخير، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف:١١٠) هذا يعم الشرك الأكبر والأصغر جميعًا، فالواجب على المؤمن أن يحذر الرياء في أعماله كلها، وتقدم في أول الكتاب قوله ﷺ: أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر فسئل عنه فقال: الرياء وهذا الحديث حديث أبي سعيد يقول ﷺ: ألا أخبركم بما هو

أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه يحسنها ويزينها ليقال أنه جيد وأنه يطمئن في صلاته وأنه ما قصده وجه الله بهذا، إنما قصده ليثنى عليه أنه يطمئن فيها وأنه يحسنها وهذا خطر عظيم؛ فالواجب الحذر من ذلك، وأن يكون الإنسان في صلاته وفي جميع أحواله يقصد وجه الله والدار الآخرة، لا يقصد رياء الناس، ولا حمد الناس، ولا ثناء الناس، لا ينفعونه، لا ينفعه مدحهم ولا ذمهم، الواجب أن يكون عمله لله وحده، سواء كان قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك يكون لله وحده جل وعلا، فمراءة الناس من الشرك الأصغر الذي يجب الحذر منه.






٣٠

باب من الشرك إرادةُ الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون﴾ والآية ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ (هود: ١٥- ١٦).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن العمل لأجل الدُنيا شرك، ينافي كمال التوحيد، ويحبط العمل، ويفترق عن الباب الذي قبله، أن هذا عمل لأجل دنيا يصيبها، والمرائي عمل لأجل المدح فقط.

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا، بل يجب عليه أن يقصد بعمل الدنيا ثواب الآخرة،و ينبغي له بل الواجب عليه الإخلاص في عمله من صلاة وصيام وقراءة وجهاد وغير

ذلك، ابتغاء وجه الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: ٨٨).

وقال جل وعلا ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود:١٥) يعني لا ينقصون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٦) ففي هذا الحث على الإخلاص في الأعمال سواء جهاد أو صلاة أو قراءة أو صيام أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو غير هذا يجب أن يفعلها العبد لله وحده لا للدنيا أو الرياء، بل يفعلها لله وحده، ولهذا قال جل وعلا محذرًا من العمل السيئ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (هود: ١٥) يعني لا ينقصون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (هود:١٦) والآية الأخرى ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى:٢٠)

فالواجب الإخلاص في الأعمال لله وحده، فيصلي لله ويصوم لله ويتصدق لله لا لمراءاة الناس، ويحج لله ويعتمر لله لا لمراءاة الناس وحمدهم وثنائهم.



٣١
باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

قال ابن عباس: «يوشك أن تنْزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟».

وقال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣) أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

وعن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (التوبة:٣١) فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه؟ ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟ فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم. (رواه أحمد، والترمذي، وحسنه).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرمه فقد اتخذهم أربابًا معناه أن الواجب على أهل العلم والإيمان أن يعظموا أمر الله ونهيه، وأن يحلوا ما أحله الله ورسوله، وأن يحرموا ما حرم الله ورسوله، وأن لا يطيعوا أحدًا في خلاف ذلك.

فالعلماء والأمراء إنما يطاعون في طاعة الله إنما الطاعة في المعروف فإذا أمر العالم، أو الأمير، أو السلطان، أو أبوك، أو زوج المرأة، أو غير ذلك بفعل ما حرم الله لم يجز، أو ترك ما أوجب الله لم يجز إنما الطاعة في المعروف.

قال تعالى ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ (النساء:٥٩)، قال ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ (النساء:٨٠)، ويقول سبحانه ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (الحشر٧)

ويقول سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور٦٣) .

والله يقول سبحانه ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ (النور:٦٣)

يخالفون يعني يحيدون ويتركون أمره عليه الصلاة والسلام

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣) ثم قال: أتدرون ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله -قول النبي ﷺ- أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، فيخشى عليه أن يفتن يقع في الشرك والردة، هذا في معناه الحذر من مخالفة النص.

وهكذا قال العلماء جميعًا، قال الصحابة، قال العلماء، كلهم يقولون: إذا خالف قولنا قول الرسول فالواجب ترك قولنا لقول الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم يعلمون أن الرسول ﷺ هو المتبع، وهو المطاع، وهو المشرع، والمبلغ عن الله، فليس لأحد أن يخالف أمره عليه الصلاة والسلام، بل يجب أن يطاع ويتبع فيما جاء به، قال تعالى﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران:٣١)

فإذا جاء النص عن رسول الله ﷺ فليس للعلماء أن يخالفوا ذلك، ليس لأهل العلم أن يخالفوا نص الرسول ﷺ، أو يفتوا الناس بخلافه، فعليهم أن يتبعوا ما قاله الرسول، وأن يدعوا ما خالفه من أقوال الناس، وإن كان من خالفه عظيمًا وعالمًا كبيرًا، لكنه قصاراه أن يكون تابعًا للرسول ﷺ، فإذا خالف

النص وجب اطراح قوله ورأيه، ويأخذ بالنص.

أما ما يقع من الناس جهلًا من غير علم، وغير بصيرة، ويتبع العلماء في شيء يظنه حق، ويظنه دينًا، ولا يعلم أنه مخالف لشرع الله فهذا لا يكون من هذا الباب، ولا يكون عبادة لهم لأن الإنسان يخطئ ويصيب، قد يتبع عالما في فتواه، ويأخذ بفتواه، ويظن أنها صواب، ويعتقد أنها صواب، فلا يدخل في هذا الوعيد، إنما هذا الوعيد فيمن استحل محارم الله بفتوى زيد أو عمرو، هذا هو الذي يدخل في هذا الوعيد، ويكون عابدًا لمن قلده في ذلك، واتبعه في ذلك؛ لأنه قدمه على شرع الله وهو يعلم، وهو عامد، ولهذا استحق هذا الوعيد.






وقوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:١١)، وقوله ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦)، وقوله ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ (المائدة:٥٠)

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به. قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب يتم التأكيد فيه على ما تضمنه التوحيد واستلزمه،

من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع، إذ هذا من مقتضى الشهادتين، فمن تلفظ بالشهادتين، ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول، فقد كذب في شهادته.

باب قوله جل وعلا ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء:٦٠)

هذا الباب تبدو أهميته في بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله، وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور كما قال جل، وعلا ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(النساء:٦٥)، كما قال ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة:٤٧) هذه الآيات وما جاء في معناها كلها دالة على وجوب التحاكم إلى شريعة الله، وأنه لا يجوز التحاكم إلى غير الله كائنًا من كان.

وهكذا قوله جل وعلا ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (البقرة:١١) هم يفسدون في الأرض،

ويزعمون للناس أنهم مصلحون بجهلهم، وضلالهم، ونفاقهم، وفساد قلوبهم، انقلبت عليهم الأمور حتى ظنوا الفساد صلاحًا؛ ولهذا قال ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:١٢)؛ لضلالهم، وجهلهم، وانتكاس قلوبهم، وهكذا قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف:٥٦)، فصلاح الأرض بحكم الله، واتباع شريعته، وفسادها بمخالفة أمر الله، والتحاكم إلى غيره، فالصلاح والاستقامة والهدى والسداد في التحاكم إلى شرع الله، والأخذ بأمر الله، والفساد والإفساد في التحاكم إلى غيره، واتباع غير شرعه، وهكذا قوله جل وعلا ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠) يعني: أفحكم الجاهلية يبغي هؤلاء الذين يريدون التحاكم إلى اليهود وإلى غيرهم من الطواغيت، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله؟! ليس هناك حكم أحسن من حكم الله؛ لأنه العالم بمصالح عباده، والعالم بما تنتهي إليه أمورهم، والعالم بعواقب الأمور، وهو العالم بكل شيء، فلا حكم أحسن من حكمه؛ لأنه يتضمن إيصال الحق إلى مستحقه، ودفع الظلم، والقضاء على أسباب

الفساد، فهو أعلم بأحوال عباده، وهو أعلم بما يصلحهم ؛ ولهذا جعل شريعته حكمًا بينهم، ومن أراد خلاف ذلك؛ فقد أراد الفساد في الأرض، فصلاح الأرض بطاعة الله ورسوله، وفسادها بعصيان الله ورسوله.

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما، عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال» لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» لا يؤمن الإيمان الكامل، الواجب حتى يكون هواه، وإرادته، وقصده، وطلبه تبعًا لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، هكذا يجب على المؤمن أن تكون ميوله، وأهواؤه، ونياته، وإراداته كلها خاضعة لحكم الله لا يبغي بذلك بديلاً.







٣٣

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات

وقول الله تعالى ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ (الرعد:٣٠)

وفي صحيح البخاري قال علي: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب اللهُ، ورسولهُ).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس: «أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات -استنكارا لذلك- فقال: ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» انتهى.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر «الرحمن» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ﴾ (الرعد:٣٠).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية،

وتوحيد الأسماء والصفات، وكان الإيمان بالله لا يحصل إلا بتحقق هذه الثلاثة، لذا وجب التنبيه على هذا النوع، ليبين حكم من جحده.

قول الله تعالى ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ (الرعد:٣٠) قال جل وعلا ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ (الرعد:٣٠) وأن الرحمن هو ربنا، وإلهنا، وأن الكفر بالرحمن كفر بالله فعلى المؤمن أن يحذر وأن هذه صفات هؤلاء الضالين، وأن يبتعد عن أخلاقهم وسيرتهم، وأن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان في إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به وسمى إنكار الصفة كفرًا بالرحمن، فدل ذلك على أن من أنكر الصفات، فقد كفر بالرحمن، وروى البخاري في صحيحه عن علي قال: (حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله، ورسوله؟!) لفظ البخاري: أتحب أن يكذب الله ورسوله؟! والمعنى في هذا أن الواجب على المذكر، والواعظ أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها، والأساليب التي يعقلونها حتى يستفيدوا، وحتى يندفعوا، كل قوم لهم أساليب، فيحدث

العجم بأساليبهم ولغاتهم، ويحدث العرب بأساليبهم ولغاتهم حتى يفهموا، حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟! لأنك إذا حدثت قومًا بغير ما يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت، وقد يفهمون غير ما قصدت، فأنت عليك أن تحدثهم بما يعرفون عن أسماء الله، وعن صفاته، وعن أحكامه.

وروى عبد الرزاق بن همام الصنعاني الإمام المشهور رحمه الله عن شيخه معمر بن راشد عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس، وهذا سند عظيم أنه سمع قومًا أصابهم فرق لما سمعوا آيات الصفات فقال: ما فرق هؤلاء، فرقهم يعني خوفهم، فرق فرقًا يعني خاف، يعني ما فرق هؤلاء، وما جزع هؤلاء؟ ما فرق هؤلاء يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه، يعني ما جزعهم، وما الذي أوجب لهم هذا الخوف، وهذا الجزع؟ فإذا سمعوا الآيات المحكمات في القرآن والسنة يجدون رقة، ويجدون خشوعًا وخضوعًا، وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم، وهلكوا عندها بالجزع، والإنكار هذا يدل على أن هذا من قديم، وأنه في عهد الصحابة، وجد شيء من هذا يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه يعني يجدون

رقه عند الأشياء الواضحة، والمعاني الواضحة، وإذا جاءت الأحاديث التي تشتبه عليهم، أو الآيات هلكوا بإنكارها، أو الشك فيها، والريب فيها، فدل ذلك على أن إنكار الصفات، وإنكار ما بينه الله لعباده، أو الشك في ذلك هلاك، وإنما الحياة والحق والصواب الإيمان بما أخبر به الله ورسوله، إن كنت فهمته فالحمد لله، وإن كنت لم تفهم فكله إلى عالمه، وقل الله أعلم بمراده، واسأل أهل العلم. وانظر في الآيات، والأدلة الأخرى حتى تفهم، وإياك والإنكار، وإياك والجزع، وإياك والشك والريب، فإن هذا طريق المنافقين، وطريق الهالكين، أما أهل السنة والجماعة فهم يؤمنون بما جاء في الكتاب والسنة، ويرقون عنده، ويخضعون له، ويعملون به، وإذا اشتبهت عليهم أمور ردوها إلى المحكمات، وردوها إلى البينات، وفسروها بما اتضح من حكم الله في الآيات الأخرى، والأحاديث الأخرى، ولا يضربون كتاب الله، ولا سنة رسول الله بعضها ببعض، ولا يشكون، ولا يرتابون، بل يؤمنون بالمتشابه.

◈ ◈ ◈



قال مجاهد بن جبر المكي ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي»، وقال عون بن عبد الله: «لولا فلان لم يكن كذا». وقال قتيبة: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

وقال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: وأن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر -الحديث وقد تقدم- وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

يراد بهذا الباب بيان وجوب التأدب مع الربوبية بتجنب الألفاظ

الشركية الخفية، كنسبة النعم إلى غير الله، لأن ذلك ينافي كمال التوحيد.

قال الله تعالى ﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ (النحل:٨٣) يعرفون أن الله أنعم عليهم وأعطاهم فيقول: هذا مالي ورثته عن آبائي، أو هذا بسبب كذا وسبب كذا، ينسى نعمة الله عليه.

والواجب أن يعترف بنعم الله، وأن يشكر الله، ولا بأس أن يذكر الأسباب مثل: البيع والشراء، الزراعة، المساقاة، لا بأس، لكن ينسب النعم إلى الله وأنها من فضل الله وكرمه، لا بجهده وعمله فقط، ولا بجهد آبائه وأسلافه، ولا بشفاعة آلهته كما يقول بعض المشركين، وكما قال الأبرص والأعمى لما امتحنوا: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ونسيا فضل الله عليهما، ومنه حديث زيد: وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب فالواجب أن يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته؛ ومنه قول بعضهم إذا سئل عن تسهيل سيره في البحر قال: كان الملاح حاذقًا والريح طيبة، ينسى نعمة الله الذي سخر الريح ويسر له الملاح الطيب.

والمقصود من هذا أن الإنسان لا يكل الرزق أو العافية أو الصحة أو ما حصل له من الخير إلى الأسباب، ينسى المنعم، بل يشكر الله، ولا بأس أن يذكر الأسباب، لكن يشكر الله ويقول إنه سبحانه أنعم علينا، يسر لنا كذا، جعل الله الريح طيبة، جعل الله الملاح -من تيسير الله- أنه كان جيدًا وفاهمًا، وهكذا في سائر أحواله، كانت التجارة بحمد لله مربحة ربحنا كذا، الزراعة سلمت بحمد الله، المساقاة سليمة بحمد الله، لا ينسى فضل الله، لا ينسبها إلى أسبابه وآبائه وينسى المنعم جل وعلا، كل شيء منه بفضله كما قال سبحانه ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ﴾ (النحل:٥٣) فالواجب شكر الله وعدم نسيانه، ولا مانع من ذكر الأسباب.





قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل».

وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص.

وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به شرك» (رواه ابن أبي حاتم).

وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله قد كفر أو أشرك. (رواه الترمذي، وحسنه وصححه).

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إليَّ من أن أحلف بغيره صادقا».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان من تحقيق التوحيد: الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ، وإن لم يقصده المتكلم بقلبه، لذا وجب التنبيه بهذا الباب على ذلك، وبين بعض هذه الألفاظ لتجتنب هي ومثيلاتها.

باب قوله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(البقرة ٢٢).

هذه الآية نزلت في الشرك الأكبر، والسلف يفسرون الشرك الأكبر بالشرك الأصغر أيضاً لأن النص يعم الأمرين، الآيات التي نزلت في الشرك الأكبر تعم ما ورد في الشرك الأصغر.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة ٢٢).

قال: هو الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء في الصخرة السوداء في ظلمة الليل، يعني أن كثيرًا من الناس يقع فيه ولا يشعر، ولا ينتبه، والأصل في الأنداد جمع ند، والند هو الشبيه والنظير، وكان المشركون يتخذون مع الله الأنداد من الأصنام والأولياء والملائكة والجن وغيرهم، ولهذا قال سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ (البقرة: ١٦٥) يعني أشباه ونظراء يشبهونهم بالله

فيما يصل لهم من العبادة من الدعاء والخوف والرجاء والذبح والنذر فصاروا بهذا قد اتخذوهم أندادًا يعني أشباهًا ونظراء لله، وجعلوا الآلهة متعددة، وهو شرك والعياذ بالله، وجب التنبُّه له حتى لا يقع فيه المسلم.

وهذا حديث عمر رضي الله عنه والمحفوظ ابن عمر عند أبي داود والترمذي: من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك، وأما حديث عمر فهو عند أحمد في المسند بلفظ: من حلف بشيء دون الله فقد أشرك فالحديث ثابت من طريق عمر ومن طريق ابنه عبد الله بن عمر في بيان أن الحلف بغير الله من الشرك وهو عند العلماء من الشرك الأصغر، وقد كان أهل الجاهلية يحلفون بآبائهم في أول الإسلام، وكان المسلمون يحلفون بآبائهم، ثم استقر النهي عن ذلك وأمرهم ﷺ أن يحلفوا بالله وحده، وأن لا يحلفوا بآبائهم. وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إليّ من أن أحلف بغيره صادقًا» يعني الكذب الذي هو من أعظم الجرائم أهون من الشرك الذي هو الحلف بغير الله.

◆ ◆ ◆





٣٦

باب قول ما شاء الله وشئت

عن قُتيلة: أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت. (رواه النسائي وصححه).

وله أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلا قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني لله ندا؟ ما شاء الله وحده».

ولابن ماجه عن الطفيل -أخي عائشة لأمها- قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون عزير بن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح

ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحدا؟ قلت: نعم قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن هذا الباب داخل في باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ (البقرة ٢٢)، وقد سبق بيان مناسبته.

يبين في هذا الباب أن الأدلة الشرعية دلت على أن من تمام التوحيد وكماله أن يقول: ما شاء الله ثم فلان، لولا الله ثم فلان، ولا يقل: ما شاء الله وشاء فلان، أو يقول: لولا الله وفلان، فهذا نوع من الشرك؛ لأنه ساوى بين المخلوق وبين الله بالواو، فلهذا جاء النهي عن ذلك، قالت اليهود: أنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد! فقال ﷺ:

قولوا ما شاء الله وحده، وإذا حلفوا أن يقولوا ورب الكعبة، لا يقولوا: والكعبة، ولكن يقولوا: ورب الكعبة فلا يجوز الحلف بغير الله لا بالكعبة ولا بالأنبياء ولا بغيرهم ولكن يحلف بالله وحده، وهكذا المشيئة لا يقال: ما شاء الله وشاء فلان، أو ما شاء الله وشاء محمد ولكن يقال: ما شاء الله، ثم شاء محمد، ما شاء الله ثم شئت يا أخي.

وهكذا حديث الطفيل في أن الرسول ﷺ قال لهم: لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا: ما شاء الله وحده، وجاء في الحديث الآخر أن الرسول ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان فلما سأل الأبرص والأعمى والأقرع عما سألوا عنه قالوا: إنا نستشفع بالله ثم بك، يعني أتوا بثم نسألك بالذي أعطاك إلى آخره المقصود أن التوسل يكون بالله جل وعلا، وإذا أضيف إليه شيء آخر فليأتي بثم، ما شاء الله ثم شاء فلان. ولا يقل: لو شاء الله وشاء فلان، أو لولا الله وفلان، ولكن يقول: ما شاء الله ثم شاء فلان، لولا الله ثم فلان.

وهذا هو طريق كمال التوحيد والبعد عن الشرك، ويأتي في هذا

باب قول الله تعالى ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿البقرة ٢٢﴾ والمقصود أن هذا المقام مقام كمال التوحيد والبعد عن وسائل الشرك صغيره وكبيره الشرك الأصغر والأكبر جميعًا، فلا يجوز للمؤمن أن يتعاطى شيئًا من الشرك لا قليله ولا كثيره بل يجب الحذر من ذلك، ومن الشرك الأصغر: لولا الله وفلان، ما شاء الله وشاء فلان، والحلف بغير الله كل هذا من أنواع الشرك الأصغر؛ ولهذا نهى النبي ﷺ عن ذلك عليه الصلاة والسلام وقال: من حلف بشيء دون الله فقد أشرك.






٣٧
باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤).

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر أقلب الليل والنهار. وفي رواية «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن سب الدهر يتضمن الشرك، لأن من يسب الدهر إذا اعتقد أنه فاعل مع الله فهو مشرك.

هذا الباب في بيان منع سب الدهر، لأن كثيرًا من الناس لجهله إذا ضاقه أمر وحزبه أمر سب الدهر، لا بارك الله في هذه السنة، لا بارك الله في هذه الساعة، لا بارك الله في هذا

اليوم، أو ما أشبه ذلك لجهله، فلا يجوز سب الدهر، بل ذلك من التأسي بالجاهلية، حيث قالوا: ﴿مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ (الجاثية: ٢٤) ما عندهم إيمان بالآخرة والبعث والجزاء، فالله جل وعلا هو مقلب الدهر، والدهر هو الزمان والله خالقه ومقلب ليله ونهاره فلا يسب فليس في يده شيء لا ينفع ولا يضر الدهر، وليس في يد الدهر عطاء ولا منع، بل هو مخلوق ومدبر ليل ونهار بأمر الله جل وعلا، ولهذا قال ﷺ» لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر» وفي اللفظ الآخر» مقلب ليله ونهاره»، وفي اللفظ الآخر» يقلب الليل والنهار، فأنا الدهر يعني خالقه ومدبره ومسيره في ليله ونهاره»..

وفي اللفظ الآخر يقول الله جل وعلا: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب ليله ونهاره، فهذا يدل على أن سب الدهر أذية لله وإغضاب لله فلا يجوز سبه لا بالشتم ولا بغيره، لا يقال: لعن الله الدهر أو فعل الله بالدهر، أو أشغلنا هذا الدهر، أو لا بارك الله في هذا الزمان أو في هذه الليلة أو في هذه الساعة كل هذا لا يجوز، بل إذا أصابه شيء يكرهه يقول: قدر

الله وما شاء فعل إنا لله وإنا إليه راجعون، يسأل ربه العافية والسلامة فالدهر ليس بيده شيء، ليل ونهار مدبران مسيران فليس في يدهما عطاء ولا منع، ولا شدة ولا رخاء ولا خير ولا شر بل هما آيتان من آيات الله سخرهما لعباده جل وعباه، كما قال تعالى ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧٣).






باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال (إن أخنع اسم عند الله رجل تسمَّى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله)، قال سفيان مثل: شاهان شاه، وفي رواية: أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه، قوله: أخنع يعني: أوضع.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن التسمي باسم فيه مشاركة لله في التعظيم شرك في الربوبية.

هذا الباب في التسمي بقاضي القضاة ونحوه، ومقصود المؤلف أنه لا يجوز التسمي بالشيء الذي لا يليق بالمخلوق وإنما يليق بالله، وهو التسمي بأسماء الله جل وعلا، فإن حاكم الحكام هو الله جل وعلا، قاضي القضاة: معناه حاكم الحكام،

إذا أطلق فلا يجوز، ولكن يقال رئيس القضاة، والدليل على هذا قوله ﷺ: إن أخنع اسم عند الله أخنع: يعني أوضع رجل تسمى بملك الأملاك، لا مالك إلا الله، قال سفيان يعني الراوي: مثل شاهان شاه، مثل قول العجم: شاهان شاه، يعني ملك الملوك.

وفي اللفظ الآخر: إن أخنع اسم عند الله وأوضعه رجل تسمى بملك الأملاك فيلحق به ما كان مثله، كحاكم الحكام، والرحمن، والرحمن الرحيم، وما أشبه ذلك مما لا يليق إلا بالله.

فيُمنع، وإنما يسمى المخلوق بالاسم الذي يليق به كعبدالرحمن، وعبدالله، وعبدالعزيز، وعبدالرؤوف، وهكذا ما لم يُعبَّد كسعد، وسعيد، ومرزوق، ومحمد، وصالح، وأشباه من الأسماء المعروفة التي ليس فيها تعاظم، وليس فيها مشاركة لله في أسمائه ولا فيها تعبيد لغير الله، لكن لو كان مقيدًا قاضي قضاة مصر، قاضي قضاة الشام، قاضي قضاة الرياض، فهذا قد يُقال إنه لا يكون فيه تشبه بالله؛ لأن هذا مقيد، والله حاكم الحكام جميعًا، فإذا قيد ببلاد معينة كان أسهل والأمر في هذا

أوسع، لكن إذا كان مطلقًا فهو محل النظر، والأحوط في هذا كله أن يقال: رئيس القضاة بدل قاضي القضاة ليكون أبعد عن الشبهة، وأبعد عن الإثم.









٣٩
باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ (إن الله هو الحكم، وإليه الحكم. فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين. فقال: ما أحسن هذا فما لك من الولد؟ قلت: شريح، ومسلم، وعبدالله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح) (رواه أبو داود وغيره).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم من أجل ذلك: من تحقيق التوحيد.

فهذا الباب في احترام أسماء الله وتعظيمها وتغيير الاسم من أجل ذلك، يعني من أجل احترام أسماء الله، النبي ﷺ غير

أسماء لا تناسب في حكم الشرع غيرها كما غير حزن بسهل، وأشباه ذلك مما جرى له عليه الصلاة والسلام من تغيير بعض الأسماء، فهذا أبو شريح كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: إن الله هو الحكم، وإليه الحكم، فقال: إن قومي كانوا إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، قال: ما أحسن هذا! يعني الصلح بينهم حتى يرضوا شيء مطلوب، فما لك من الولد؟ قلت: شريح، ومسلم، وعبدالله، قال: فمن أكبرهم؟ قال: شريح، قال: فأنت أبو شريح، وأن كنية أبا الحكم ينبغي تركها، ولكن هذا يشكل عليه أحاديث كثيرة صحيحة أصح منه، وهي أنه ﷺ أقر أسماء باسم الحكم، واسم حكيم، ولم يغيرها، حكيم بن حزام في الصحيحين له أحاديث كثيرة، والحكم بن حزن له أحاديث، ولم يغيرها عليه الصلاة والسلام.

فيدل هذا على أن مثل هذا لا حرج فيه أن يسمى الحكم والحكيم، ويكون هذا معارضًا لما جاء في الحديث المذكور هذا، والجمع بينهما على تقدير سلامة هذا الحديث من العلة أن هذا هو الأفضل ألا يكنى بأبي الحكم، ويكنى بكنية

أخرى، وأما الجواز فيجوز؛ لأن الرسول ﷺ أقر حكيمًا، وأقر الحكم، ولم يغير أسماءهما، فيكون هذا هو الصواب.

وإذا غير أبو الحكم بأبي شريح، أو بأبي عبد الله، أو بأبي فلان، كان هذا حسنًا من باب الاحتياط، وإلا فأحاديث الحكم والحكيم أصح، في الصحيحين حكيم بن حزام له أحاديث كثيرة في الصحيحين، وحكيم بن معاوية وحكيم بن حزن وأسماء كثيرة باسم الحكم والحكيم، كلها دالة على الجواز وأن الرسول ﷺ أقرها.

ومعنى حكيم اسم جامد، قد يكون سماه حكيمًا لأنه جيد في أعماله، عنده حكمة وعنده نظر وعنده بصيرة، وقد يكون الحكم اسم جامد، مثل حكيم بن حزام والحكم بن ... أسماء جامدة، والله سبحانه هو الحكيم ويسمى عبده الحكيم، وليس الحكيم كالحكيم، كما أن الله سبحانه عليم ويسمى عبده عليمًا، يسمى عبده بصيرًا وهو يسمى بصيرًا، وليس البصير كالبصير، وليس السميع كالسميع، وليس الحكيم كالحكيم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى:١١) وهكذا بقية الأسماء التي يشترك فيها المخلوق كالسميع

والبصير والحكيم والقدير وأشباهه فهي مشتركة في الألفاظ ولكن الحقائق تختلف، فليس الحكيم كالحكيم، وليس المجيد كالمجيد، وليس العزيز كالعزيز، وليس السميع كالسميع، وليس البصير كالبصير.

وهناك أسماء لا يسمى بها إلا هو كالخلاق، والرزاق، وخالق الخلق، وعالم الغيب والشهادة، هذه الأسماء تختص بالله لا يسمى بها غيره.






٤٠
باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ (التوبة:٦٥).

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال رجل في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء -يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء-. فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة

تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول له رسول الله ﷺ ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ (التوبة:٦٥) ما يلتفت إليه وما يزيده عليه.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان حكم من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول ﷺ وأنه كفرٌ منافٍ للتوحيد.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو الرسول، أو القرآن، الجواب: أنه كافر، من استهزأ بالدين، بالله، أو بالرسول، أو بالقرآن، أو بالإسلام، فهو كافر بإجماع المسلمين، قد ذكر أهل العلم في كل مذهب هذا المعنى في باب حكم المرتد، وهو المسلم يكفر بعد إسلامه، ذكروا الاستهزاء، وذكروا الأشياء الأخرى المكفرة في باب حكم المرتد، ومن ذلك الاستهزاء بالله، أو بالرسول، أو بالقرآن، أو بأصحاب النبي ﷺ. قال الله تعالى في المنافقين ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ (التوبة:٦٥-٦٦) وهي نزلت في قوم خاضوا في غزوة تبوك، وقالوا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء

أرغب بطونًا، ولا أكذب ألسنًا، ولا أجبن عند اللقاء؛ يعنون الرسول ﷺ وأصحابه أنهم جبناء، ما هم إلا بطونهم كذبة، وهذا شر عظيم نعوذ بالله، وفساد كبير، وتهمة عظيمة للرسول ﷺ وأصحابه؛ ولهذا أنزل الله فيهم ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ (التوبة:٦٥-٦٦) فجاء الرجل المتكلم وقد ركب الرسول ﷺ ناقته، فجعل يتعلق بنسعتها -يعني بالحبل الذي في بطنها- ويقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، ما قصدنا الحقيقة، والرسول ﷺ يرد عليه بقوله ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (التوبة:٦٥) ما يزيده على ذلك.

هذا فيه دليل على وجوب الحذر من هذا الكلام السيئ والاستهزاء الفاضح، وأن الواجب على المسلم أن يحذر شر لسانه، وألا يستهزئ بالله أو برسوله أو كتابه أو عباده المؤمنين.

المقصود أن الاستهزاء بالقرآن، أو بالرسول عليه الصلاة والسلام، أو بالدين، كله كفر وضلال، وهو من أنواع الردة.



٤١ باب قوله تعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ (فصلت: ٥٠)

قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (فصلت: ٥٠).

قال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد من عندي.

وقوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ (القصص: ٧٨) قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب».

وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل»، وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف».

هذا الباب لبيان ظلم الإنسان وجحود الإنسان، وأنه يغلب عليه الجحود وعدم الإقرار بالنعم، هذا هو الغالب على الإنسان، كما

قال جل وعلا والإنسان ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾ (فصلت: ٥٠) يعني هذا الذي عندي من عندي، ومن أسبابي، ومن كسبي، قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به.

وقال في قوله تعالى عن قارون ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ (القصص:٧٨) يعني على علم عندي بوجوه المكاسب، وقال آخرون على علم من الله أني له أهل، وقال آخرون: على شرف لي وأني ذو شرف؛ ولهذا أعطيت هذا المال.

المقصود من هذا كله أن الغالب على بني آدم الجحود وعدم الإقرار بالنعم إلا من وفقه الله وهداه وأن يعترف بالنعمة وشكر المنعم، فالواجب على المؤمن ألا يتأسى بهؤلاء، وأن يحذر أخلاق هؤلاء، وأن يشكر نعم الله من الصحة والمال والبصر وغير هذا مما يعطيه الله جل وعلا، ولا يتأسى بهؤلاء الذين ظلموا أنفسهم.

وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال: ينزل الله في كل يوم ملكين كل صباح يوم أحدهما يقول: اللهم أعط منفقًا خلفًا، والثاني يقول: اللهم أعط ممسكًا تلفًا فجدير بالمؤمن أن يتذكر نعم الله، وأن يشكر الله بأنواع الشكر من القلب من القول والعمل والصدقة وعمل الطاعات المتعلقة بالبدن والمتعلقة بالمال.



قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك حاشى عبدالمطلب.

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن تعبيد الأولاد وغيرهم لغير الله في التسمية: شركٌ في الطاعة، وكفرٌ للنعمة.

باب ما جاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأعراف:١٩٠) أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان تحريم التعبيد بغير الله، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد لغير الله، فلا يقال عبد النبي، ولا عبد الكعبة، ولا عبد الحسين، ولا عبد عمر، ولا شبه ذلك، بل التعبيد يكون لله وحده: عبدالله، عبدالرحمن، عبدالعزيز، عبدالكريم،

عبدالقدوس، إلى غير ذلك، لأن الله ذم من فعل ذلك ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (الأعراف:١٩٠) هذا ذم وعيب لمن فعل ذلك.

الآية سياقها في آدم وحواء عليهما الصلاة والسلام، وهذه على ما قاله السلف زلة من آدم وحواء حيث أطاعا فيها الشيطان في عبد الحارث، وقال آخرون: إن المراد بالآية جنس من بني إسرائيل، وقع من بني إسرائيل وفعلوا هذا الفعل، ولكن ظاهر السياق يأبى ذلك، ظاهر السياق هو مثل ما قال ابن عباس وغيره من السلف: أن هذا وقع لآدم بسبب موت الأول والثاني من أولادهما، فلما أدركهما حب الولد زين لهما الشيطان هذه الوسوسة، وهذا الاسم عبد الحارث ظنا أنه يعيش بسبب ذلك ووقعا في المعصية.

قال تعالى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ (الأعراف:١٩٠) فعلم بذلك أنه لا يجوز التعبيد لغير الله، ولهذا قال ابن حزم: اتفق العلماء على تحريم كل اسم معبد لغير الله كعبد عمر، وعبد الكعبة، ونحو ذلك حاشا عبد المطلب لأن الرسول ﷺ أقر ذلك، فدل ذلك على أن عبد المطلب مستثنى.

أما بقية الأسماء المعبدة لغير الله فإنه يمنع كعبد عمر، وعبد الكعبة، وعبد النبي، ونحو ذلك، قال قتادة: الشرك في طاعته ولم يكن في عبادته، يعني أطاعوه في هذا الاسم عن غير علم فنبه على ذلك كما بينه الله في كتابه العظيم.

وهذا كله من باب كمال التوحيد، وكمال الإيمان، وكمال العبادة لله وحده، وكمال الخضوع له، وشريعة محمد ﷺ جاءت بغاية كمال التوحيد، وغاية الكمال في تعظيم الربوبية، وغاية الكمال في البعد عن وسائل الشرك، ووسائل التعبد لغير الله، فهي أكمل الشرائع وأعظمها وأتمها وأبعدها عن كل شرك، هذه الشريعة المحمدية التي جاء بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.





ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس ﴿يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف: ١٨٠) : يشركون».

وعنه: «سموا اللات من الإله، والعزى من العزيز».

وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها».

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب جاء للرد على من يتوسل إلى الله بغير أسمائه، وأن المشروع هو التوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا.

باب قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (الأعراف:١٨٠)

يبين سبحانه أن له الأسماء الحسنى التي لا يعتريها نقص، بل هي كاملة: كالحكيم، والعزيز، والرؤوف، والقدير،

والقدوس، والملك، ونحو ذلك، كلها أسماء حسنى دالة على المعاني العظيمة، موصوف بها ربنا على الوجه اللائق به جل وعلا فيدعى بها، يقال: يا رحمن، يا رحيم، يا عزيز، يا حكيم اغفر لنا، ارحمنا، أنجنا من النار، فهو يدعى بها جل وعلا، ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ (الأعراف:١٨٠) الإلحاد فيها هو الميل بها عن الحق والإشراك مع الله فيها، كمن جعل لغير الله شيئا من العبادة كاللات والعزى والأصنام، قد أشرك فيها مع الله غيره وجعلها إلهاً له ولغيره، فصار كافرا بذلك، وهكذا من ألحد فيها بأن مال عن الحق وزعم أنه لا معنى لها كالجهمية والمعتزلة الذين نفوا صفات الله، أو نفوا أسماءه وصفاته جميعا، فقد ألحدوا في ذلك، يعني مالوا عن الحق، الإلحاد الميل عن الحق، ومنه اللحد في القبر.

فالواجب على المؤمن أن يكون منقادا للحق ثابتا عليه متصفا به ملتزما به حتى لا يزيغ عنه يمينا ولا شمالًا. والواجب أن يعبد الله وحده، وأن يخص بالعبادة، فتسمية آلهة المشركين آلهة إلحاد ونفي الصفات وتأويلها إلى غير معناها، إلحاد ونفي الأسماء بالكلية، إلحاد ونفي بعضها أو تأويل بعضها إلحاد،

فالإلحاد يتفاوت ويختلف بعضه أشد من بعض..

وهكذا الميل عن الحق في تعاطي المعاصي والسيئات والميل عن العدالة نوع من الإلحاد، لكنه إلحاد أصغر غير الإلحاد الأكبر الذي يقع من الكفرة بعبادة غير الله، وبإنكارهم ما أخبر الله به على ألسنة الرسل، فمن كذب الله أو عبد معه غيره فقد ألحد إلحادًا يجعله من الكافرين، وهكذا من نفى صفات الله وأسمائه كالجهمية ونحوهم ألحد إلحادا يلحقه بالكافرين عند أهل السنة والجماعة، ومن ألحد في بعض الشيء فأول بعض الصفات فهذا له نصيب من الباطل وعليه وزره في ذلك، ولكن لا يخرجه ذلك عن دائرة الإسلام، بل هو مسلم عنده نقص بسبب ما تأوله من بعض الصفات.







باب لا يقال: السلام على الله

في الصحيح عن ابن مسعود قال: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ، وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان السلام على الشخص معناه طلب السلامة من الشرور، والآفات، امتنع أن يقال: السلام على الله، لأنه هو الغني السالم من كل آفة ونقص، فهو يدعى ولا يدعى له، ويطلب منه ولا يطلب له، فهذا الباب فيه وجوب تنزيه الله عن الحاجة والنقص، ووصفه بالغنى والكمال.

باب لا يقال السلام على الله؛ لأن الله هو السلام، كان الصحابة

في أول الأمر يقولون إذا جلسوا للتحيات: السلام على الله من عباده، السلام على جبرائيل، السلام على ميكائيل، السلام على فلان وفلان، فقال لهم النبي ﷺ: لا تقولوا السلام على الله فإن الله هو السلام، ولكن قولوا التحيات لله، والصلوات، والطيبات السلام عليك أيها النبي، ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده، ورسوله، ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعوه رواه الشيخان من حديث ابن مسعود هذا هو الذي يقال التحيات، ما يقال السلام على الله؛ لأن الله هو السلام، وكان يقول إذا سلم من صلاته، واستغفر ثلاثًا قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فالله هو السلام، معناه أنه السالم من كل نقص وعيب، ومعناه أنه مسلم لعباده، صيغة السلام لها معنيان: أحدهما أنه يسلم لعباده، أنه الذي يعطي السلام. والمعنى الثاني أنه الكامل، والسالم من كل نقص، وعيب فله الكمال المطلق من كل الوجوه في ذاته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله، فلا يسلم عليه، لا يقال على الله السلام؛ لأن السلام دعاء، فلا يقال على الله

السلام، لأنه غني عن كل أحد ليس في حاجة إلى دعاء الناس، وإنما المشروع تعظيمه وتقديسه، والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال، والإيمان بأنه المسلم لعباده، النافع الضار، المعطي، المحسن هذا هو الذي يليق به، أما أن يقال: على الله السلام، أو عليك يا رب السلام فهذا نوع من الدعاء لا يليق بالله، وإنما يسلم على المخلوق، يقال: السلام على فلان، يعني له السلامة له العافية؛ لأنه محتاج إليها، أما الله فهو الكامل في ذاته، وأسمائه وصفاته، وأفعاله الغني بذاته عن كل ما سواه، فهو الذي يعطي السلام، ويمن بالسلام، ويجود بالسلام على عباده، وهو ليس في حاجة إلى شيء من عباده يمدونه به، أو ينفعونه به، فهو غني بذاته عن كل ما سواه.







باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في الصحيح عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة ; فإن الله لا مكره له.

ولمسلم (وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه).

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد:

لما كان القول (اللهم اغفر لي إن شئت) يدل على فتور الرغبة، وقلة الاهتمام بالمطلوب، والاستغناء عن الله من ناحية، ويشعر بأن الله تعالى قد يضطره شيء إلى فعل ما يفعل، وفي هذين المحذورين مضادة للتوحيد لذلك ناسب عقده هذا الباب في كتاب التوحيد.

باب لا يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن

شئت، أراد المؤلف بهذا أن من كمال الإيمان وكمال التوحيد العزم على المسألة وعدم التردد، وأن المؤمن إذا دعا ربه يعزم ولا يتردد، فإن جوده عظيم، وهو الغني الحميد، فلا يليق بالمؤمن أن يستثني، إنما يستثني إذا طلب المخلوق الذي قد يعجز فيقول: أعطني كذا إن شئت أو إن استطعت، هذا في حق المخلوق، أما الرب فهو الغني الكامل، والقادر على كل شيء، فلا يليق بالفقير -العبد الفقير- أن يستثني في سؤاله فيقول: اللهم اغفر لي إن شئت، أو اللهم أدخلني الجنة إن شئت، كأنه غير محتاج، كأنه ليس بمضطر إلى هذا المسؤول، ولكن يعزم المسألة، وليجزم، ولهذا يقول ﷺ: لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، وليعزم المسألة فإن الله لا مكره له. لا أحد يكره الله على شيء حتى يقال إن شئت، وليس بعاجز حتى يقال: إن شئت، فلا يليق هذا بالله، وفي اللفظ الآخر: وليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه فهو جل وعلا العظيم الغني الحميد، ولا يتعاظمه شيء أعطاه عباده وجاد به على عباده، بل كلها عنده قليلة ويسيرة، وإن أعطاهم الشيء العظيم، فالمشروع

للمؤمن أن يكون عظيم الرغبة فيما عند الله، شديد التعلق بالله، شديد اللجأ إليه، فإن سأله سأله سؤال مضطر، سؤال الراغب، فلا يستثني ولا يقول: اللهم اغفر لي إن شئت، أو اللهم ارحمني إن شئت، أو اللهم اكفني إن شئت، أو اللهم ادخلني الجنة إن شئت، لا، وهكذا الإخوان لا يقول: غفر الله لك إن شاء الله، أو رحمك الله إن شاء الله، لا، يجزم: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، رحمك الله يا أخي، ولا يقل إن شاء الله، لا يستثني بل يكون دعاؤه دعاء الراغب، دعاء الجازم، دعاء.






٤٦

باب لا يقول: عبدي، وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك؛ وليقل: سيدي، ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي، وأمتي، وليقل: فتاي، وفتاتي، وغلامي.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن التلفظ بهذه الألفاظ المذكورة يوهم المشاركة في الربوبية فنُهي عنها، تأدباً مع الربوبية، وحماية للتوحيد، بسد الذرائع المفضية إلى الشرك.

باب لا يقول: عبدي وأمتي، يعني لا يقول العبد عندما يخاطب جاريته، أو غلامه جاء عبدي، وأمتي تأدبًا مع الله، بل يقول فتاي، وفتاتي، وغلامي، خادمي، ونحو ذلك؛

لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله، هذا من باب الكمال، والتأدب مع الله، والاعتراف بأنه سبحانه هو المالك لكل شيء، وهو رب كل شيء سبحانه وتعالى، بخلاف ذات العبد فلان، أو إماء فلان، فهذا ليس من باب الإضافة إلى نفسه، بل من باب الإخبار.

عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: لا يقلن أحدكم أطعم ربك، ووضئ ربك، وفي اللفظ الآخر: اسق ربك، وليقل سيدي، ومولاي، وهذا من باب -أيضًا- التأدب؛ لأن رب الجميع هو الله.

فلا يليق هذا الإطلاق أطعم ربك، والله جل وعلا لا يطعم فهو الغني عن كل ما سواه سبحانه.

وتعالى، وهكذا الوضوء، وهكذا السقي كله لا يليق في حقه سبحانه؛ لأنه له الكمال المطلق، فليس في حاجة إلى طعام، وشراب وغير ذلك، هو الغني عن كل ما سواه.

فلا يناسب هذا التعبير أطعم ربك، ووضئ ربك، الله رب الجميع، وهو يريد سيدك، يجعل أمره الذي هو مالك، ولكن يقول عبارتها: أطعم سيدك أطعم مولاك، عمك؛ لأن هذه

العبارات المعروفة لا تشتبه بالربوبية.

كما تقدم كل هذا من باب الأدب مع الله في عدم إطلاق الرب على السيد، وفي عدم قوله عبدي، وأمتي، وليستعمل الألفاظ البعيدة عن المشابهة، والبعيدة عن سوء الأدب فيقول: غلامي، فتاي، جاريتي، ولا يقل عبدي، وأمتي، وكذلك لا يقل أطعم ربك، وضئ ربك، أطع ربك، ويقصد به السيد، ولكن يقول: سيدي، مولاي، عمي، رئيسي، العبارات التي يصطلحون عليها، غير هذه العبارات.








باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه) (رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لأن في عدم إعطاء من سأل بالله عدم إعظام لله، وعدم إجلال له، وذلك يخل بالتوحيد.

يقول ﷺ: من سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن استعاذ بالله فعيذوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، هذه من خصال المسلم ومن مكارم الأخلاق، من مكارم الأخلاق

ومحاسن الأعمال أن أخاك إذا سألك بالله أن تعطيه إذا تيسر ذلك وسأل شيئًا يحل له شُرِع لك أن تعطيه إلا إذا سأل الزكاة وهو ليس من أهلها فلا يعطى، إذا سأل شيئًا ليس هو أهلاً له فلا يعطى، لكن يعطى ما يجوز أن يعطى إياه، ويحسن إليه تعظيمًا لمن سأله به؛ لأنه سأل بالله جل وعلا، وينبغي له أن لا يسأل بالله لئلا يشدد على أخيه، لكن إذا سأل بالله فليعط إذا كان ذلك شيئًا يجوز، أما إذا كان لا يجوز كأن يسأل الزكاة وهو ليس من أهلها، فلا يعطى أو يسأل شيئًا محرمًا لا يعطى، هكذا من استعاذ بالله ليعاذ ولهذا لما قالت الجونية للرسول عليه الصلاة والسلام: أعوذ بالله منك، قال: لقد عذت بعظيم وترك الزواج منها، فإذا قال: أعوذ بالله من كذا وهو شيء يمكن أن يعاذ منه فلا بأس، أما أن يستعيذ بالله من فعل واجب عليه أو ترك محرم عليه فلا يجاب بل يلزم بالحق، لكن إذا استعاذ بالله من شيء لا يلزمه فلا يجبر عليه تعظيمًا للذي استعاذ به سبحانه وتعالى كذلك: من دعاكم فأجيبوه إلى وليمة عرس أو غيره من حق المسلم على أخيه إجابة الدعوة ما لم يكن فيها منكرًا ظاهر لا يستطيع إزالته، أو يكون الداعي يستحق الهجر، وهذا جاء في

أحاديث كثيرة من حق المسلم على أخيه إجابة الدعوة.

ومن صنع إليكم معروفًا هذه المسألة الرابعة، صنع إليكم معروفًا فكافئوه يعني أحسن إليك، ورد عنك ظلامة وخلصك من مشقة قضى عنك دينًا إلى غير هذا من صنع إليكم معروفًا فكافئوه بالكلام الطيب والدعاء وبالمال إذا احتاج إلى المال فمن لم يجد فبالدعاء إذا لم يتيسر أن يكافأ بالمال أو بمثل ما صنع فبالدعاء يدعو له جزاه الله خيرًا وضاعف الله مثوبته وغفر الله له وأحسن الله إليه ونحو ذلك.

هذه المكافأة في حق من لم يستطع المكافأة أما إذا كان يستحق المكافأة بالمال وأنت تقدر تكافئه بالمال أو بما يقوم مقام المال بما يناسب الكربة التي كشفها وفرجها عنك وفعل معك المعروف تكافئه بنحو ذلك بما يناسبه إلا إذا عجزت فالدعاء يكفي فالدعاء فيه خير كثيرة. لحديث أسامة بن زيد: من صنع إليه معروفًا فقال لفاعله جزاك الله خيرًا فقد أبلغ في الثناء، فالدعاء له والثناء عليه من جملة الجزاء.





باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ (لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة) (رواه أبو داود).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه يجب احترام أسماء الله وصفاته، فلا يسأل شيء من المطالب الدنيوية بوجهه الكريم بل يسأل به أهم المطالب، وأعظم المقاصد وهو الجنة، فهذا من حقوق التوحيد.

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة، وحديث جابر ورواه أبو داود، وما ذاك إلا لأن الجنة هي أعلى المطالب، وفيها النظر إلى وجه الله، وفيها النعيم المقيم، ووجه الله له شرفه العظيم فلا يسأل بوجه الله إلا الجنة يعني وما يقرب إليها، فيقول: اللهم إني أسألك بوجهك الكريم إدخالي الجنة والنجاة

من النار، أو اللهم إني أسألك بوجهك الكريم أو توفقني للاستقامة على طاعتك أو للإخلاص لك، فما يقرب من الجنة هو من جنس طلب الجنة، لكن الحديث في سنده بعض اللين أو الضعف، والأكثر قرباً للمعنى أن ما أريد بهذا الباب مع لين الحديث أن هذا من الكمال، من كمال التوحيد ومن كمال الإيمان ألا يسأل بوجه الله إلا الجنة؛ لأنها أعلى المطالب، وهكذا ما يقرب إليها من سؤال الله الثبات على الإيمان، وسؤال الله الفقه في الدين، وسؤال الله صلاح القلب والعمل، وسؤال الله العافية من مضلات الفتن، كل هذه تقرب إلى الجنة وتباعد من النار.

والحديث وما فيه من اللين ينجبر بما جاء في رواية أخرى من النهي عن السؤال بوجه الله، فيكون هذا خاصا بسؤال الله بوجهه الكريم الجنة وما يقرب إليها وما يدعو إليه.





٤٩

باب ما جاء في اللو

وقول الله تعالى ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَا﴾ (آل عمران:١٥٤)، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا﴾(آل عمران:١٦٨)

في الصحيح عن أبي هريرة في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا، وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من كمال التوحيد الاستسلام للقضاء والقدر، وأن قول (لو) لا يجدي شيئاً وهو يشعر بعدم الرضا بالقدر وهذا مخل بالتوحيد.

باب ما جاء في كلمة «لو»، يعني كلمة «لو» هل تجوز، أو لا تجوز؟

المقصود من هذا بيان أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، بل يجب التسليم والصبر، وعدم المعارضة للقدر بقوله «لو» عند مرض، أو موت قريب، أو غير ذلك، بل يجب التسليم والصبر والاحتساب، قال الله في ذم المنافقين ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ (آل عمران:١٥٤) هذا قاله ذمًّا لهم، وعيبا لهم، وقال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ (آل عمران:١٦٨) كل هذا على سبيل الذم؛ فدل ذلك على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر في مرض، أو هزيمة، أو غير ذلك، وأن هذا من شأن المنافقين، فإن قدر الله ماضٍ، وأمره نافذ، وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة.فالأسباب إذا تعاطها المؤمن، فإذا نزل القضاء فليس له أن يعترض بعد ذلك، ولهذا في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي عليه الصلاة، والسلام أنه قال: المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصابك شيء

فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل يعني هذا قدر الله، وما شاء فعل، وبعضهم ضبطه: قدَّر الله، يعني هذا الشيء الواقع، وما شاء فعل، جعل قدر فعل ماض، والله فاعل، والمعنى الأول أظهر، يعني هذا الواقع قدر الله، يعني مقدور الله، وما شاء الله فعله.

فإن لو تفتح عمل الشيطان يعني تفتح عن العبد عمل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، فينبغي للمؤمن ألا يستعملها حتى لا يقع في حبائل الشيطان ووساوسه وتشكيكه، وإملائه ما لا ينبغي، فإن الأمور التي بيد الله، هو الذي قدرها جل وعلا، فإذا فعل المؤمن ما شرع الله من العلاج، من السفر، من الإقامة، من الأكل من غير ذلك من الأسباب التي تعاطاها، ثم غلبه القدر؛ فليقل: قدر الله، وما شاء فعل، إنا لله وإنا إليه راجعون، فليس الأمر بيده، بل بيد الله.







باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال:« لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به» (صححه الترمذي).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن سب الريح سبٌ لمدبرها وهو الله تعالى، لأنها تجري بأمره، فسبها مخلٌ بالتوحيد.

فهذا الباب أيضاً من كمال التوحيد ومن كمال الإيمان النهي عن سب الريح، ذكره المؤلف في كتاب التوحيد؛ لأن هذا من كمال التوحيد ومن كمال الإيمان أن لا يسب الريح؛ لأنها خلق مدبّر ومأمور فلا يجوز سبه، تأتي بالخير والشر؛ فإذا رأى

الإنسان من الريح ما يكره فليقل: اللهم إني أسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به.

وفي اللفظ الآخر: وشر ما أرسلت به، وبهذا يحصل المطلوب وهو السلامة من المكروه، أما سبها: لعن الله هذه الريح، قاتل الله هذه الريح، كل هذا لا يجوز، ولكن يقول: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به، وهذا كاف في الأدب الشرعي.

وهكذا لا يسب الأمراض، ولا يسب الدنيا، ويحفظ لسانه عن الكلام السيئ إلا من سبه الله ورسوله، ويكون الإنسان متحفظًا في كلماته، متحفظًا في دعائه وسبّه وغير ذلك إلا حسب ما تمليه الشريعة.





وقول الله تعالى ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ (الفتح:٦).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

التنبيه على حسن الظن بالله من واجبات التوحيد، وأن سوء الظن بالله ينافي التوحيد.

والمقصود من هذا الباب بيان أن كثيرا من الناس لا يسلم لله حكمته، ولا يسلم لله قدره السابق، ولا يسلم لله ما أراده سبحانه من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا وحتى ينتبهوا، بل أساؤوا الظن بالله من وجوه كثيرة: منهم من يظن أن ما يقع من الأشياء التي تخالف هواه أنه لم يكن عن حكمة ولا عن قدر سابق، ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن

حكمة فقط، ومنهم من يظن أن الله جار على عباده وظلمهم حتى فعل كذا وفعل كذا، ظلم فلان وأخر فلانا وأصح فلانا وأمرض فلانا لماذا؟.

فهذه أمور الناس الكثيرة، ولهذا قال الله في المنافقين ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ (آل عمران:١٥٤) في قصة أحد لما وقعت وقعة أحد وجرى على المسلمين ما جرى من الهزيمة والجراح وقتل سبعين منهم يوم أحد نجم النفاق، تكلم المنافقون بما تكلموا به وظنوا بالله غير الحق فيقولون هل لنا من الأمر شيء؟ هل لنا تصرف في هذا الأمر، ويقولون ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ (آل عمران:١٥٤) يعني أننا مجبورون وليس لنا أمر، ولكن قادنا محمد إلى هذا الأمر حتى وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالهم، وقلة بصيرتهم وعمى قلوبهم، فلهذا ظنوا بالله ظن السوء، وظنوا أن ما وقع لم يكن عن حكمة بالغة، وظنوا أن الله لا ينصر رسوله، وأن هذا النبي سيضمحل أمره وستكون الدائرة عليه، وظنوا أن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة، فصار ظنهم هذا يجمع بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر أولياءه

ولا ينصر رسوله، ومن جهة أنه لا يعمل عن حكمة ولا تقع أفعاله عن حكمة بل لمجرد المشيئة المجردة، فهذا كله باطل، ولهذا بين الله في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يفعله، وفيما يقضيه، وفيما يشرعه، وأنه يبتلي عباده بالسراء والضراء والشدة والرخاء ليبتليهم وليمحص ما في قلوب المؤمنين، ويمحق الكافرين، وليتب المؤمنون إليه ويستغفروه، وليعدوا أنفسهم إعدادا عظيما للقائه، والقيام بحقه.

يجب على المؤمن أن يؤمن جازما أن ربه حكيم عليم، وأن ما يقضيه عن حكمة بالغة، وعن قدر سابق، وله في الحكمة البالغة والأسرار العظيمة من تهيأة عباده المؤمنين لما هو أفضل، ومن رفع درجاتهم واتخاذ شهداء منهم، ومن تكفير سيئاتهم ومن تنبيههم على أخطائهم حتى يستعدوا وحتى يتوبوا إلى غير هذا من الحكم.







٥٢

باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر. ثم استدل بقول النبي ﷺ: الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره (رواه مسلم).

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة. يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من مات على غير هذا فليس مني.

وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة. وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أنه لما كان توحيد الربوبية لا يتم إلا بإثبات القدر والإلمام به، فكان وجوباً في هذا الباب ذكر ما جاء من الوعيد في إنكاره، تنبيهاً على وجوب الإيمان به.

لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان وضع المؤلف هذا الباب في كتاب التوحيد لأن ذلك مما يحصل به التوحيد وينتفي به الكفر، ولهذا قال: باب ما جاء في منكري القدر، يعني من الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من إنكاره.

قد كان المسلمون في عهده ﷺ قد آمنوا بالقدر وسلموا لله أمره، ثم نبغت نابغة بعد ذلك في آخر عهد الصحابة وبعد ذلك فأنكروا القدر، وقالوا: الأمر أنف، وزعموا أن في إثبات القدر خلافا للعدل، وكيف تقدر الأمور ثم يعاقب العاصي

والكافر على ما فعل جهلا منهم وضلالا والتباسا بالأمر عليهم، أما أهل الحق من أهل السنة والجماعة من أصحاب النبي ﷺ ومن سار على نهجهم فقد آمنوا بالقدر وصدقوه، وأن الله قدر المقادير وكتبها سبحانه، فلا يقع في ملكه ما لا يريد، بل قدر كل شيء وأحصى كل شيء، وهو العالم بكل شيء وقد دل كتاب الله على سبق علمه بالأشياء، وهذا هو القدر، ودلت السنة على ذلك، فمن أنكر ذلك وزعم أنه لا قدر فهو كافر مكذب لهذه النصوص، متعدٍ لحدود الله، ناسبا إلى ربه الجهل وعدم العلم، ولهذا قال ابن عمر لما بلغوه قال: إذا لقيتموهم فقل لهم: إن ابن عمر بريئ منكم، ولستم مني ولست منكم، وقال: لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر، وهكذا قال زيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وحذيفة بن اليمان، وعبدالله بن مسعود، وهكذا قال أهل السنة والجماعة، فالواجب على أهل كل مسلم وعلى كل مكلف يدخل في الإسلام أن يؤمن بالقدر ويصدق بعلم الله في الأشياء.

والإيمان بالقدر يشمل أمورا أربعة يشمل: علم الله بالأشياء

وكتابته لها، وأنه خالق كل شيء ومقدر كل شيء، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فجميع المخلوقات هو الذي خلقها سبحانه وتعالى بمشيئته جل وعلا، وحكمته، وقدرته العظيمة، فلا بد من هذه الأمور الأربعة الإيمان بعلم الله وأن الله علم كل شيء، وأنه كتب كل شيء وأنه خالق لكل شيء، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، هذه مراتب القدر الأربع، من آمن بها فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بشيء من القدر.







٥٣ باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: (**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة**) (أخرجاه).

ولهما عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: (**أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله**).

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كل مصور في النار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

لما كان التصوير وسيلة الشرك المضاد للتوحيد، ناسب أن

ينعقد هذا الباب، لبيان تحريمه، وما ورد فيه من الوعيد الشديد.

في حديث أبي هريرة رضي الله عنه يقول رسول الله ﷺ يقول الله جل وعلا: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة المعنى لا أحد أظلم ممن ذهب يصور فدل على قبح التصوير وأنه من الظلم الذي حرمه الله على عباده.

وقوله: فليخلقوا ذرة هذا من باب التعجيز يعني إن كانوا صادقين فليخلقوا ذرة، وهي الدابة المعروفة الصغيرة أو ليخلقوا حبة تنبت في الزرع ويحصل بها المقصود، أو شعيرة كلهم عاجزون فالواجب عليهم أن يدعوا ما حرم الله عليهم وأن يقفوا عند حدهم هذا هو الواجب على كل مكلف أن يقف عند حده وأن يترك ما حرم الله عليه.

وفي حديث عائشة رضي الله عنها يقول النبي ﷺ: أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله، وفي اللفظ الآخر: أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون.

ومعنى المضاهاة الذين يصنعون شيئًا يضاهئون به الخلقة

التي خلقها الله، يعني يتشبثون بالتصوير الذين يرون أنه يشابه ما خلقه الله من أسد أو نمر أو إنسان أو غير ذلك.

ويقول ﷺ: كل مصور في النار يجعل له في كل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم، فهذا وعيد آخر نسأل الله العافية، وأنه يعذب بعدد الأنفس التي صورها.







باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ (المائدة:٨٩) عن أبي هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن من كمال التوحيد احترام اسم الله وعدم امتهانه بكثرة الحلف، لأن ذلك يدل على الاستخفاف به وعدم التعظيم له.

باب ما جاء في كثرة الحلف، أراد المؤلف بهذا بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان، ونقص في التوحيد، لأن كثرة الحلف تفضي إلى شيئين: أحدهما: التساهل في ذلك وعدم المبالاة، والأمر الثاني: الكذب، فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب، فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الأيمان، ولهذا قال

سبحانه ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ﴾ (المائدة:٨٩) هذا الأمر للوجوب يجب حفظ اليمين إلا من حاجة لها، فالمؤمن يحفظها ويصونها إلا من حاجة، لمصلحة شرعية، أو عند الخصومة والحاجة إليها ونحو ذلك، ولا يكثر منها، فإنه متى أكثر وقع في الكذب، ووقع في التساهل، وظن به الكذب.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال (الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب)، وفي اللفظ الآخر: ممحقة للربح والحديث هذا رواه الشيخان، وهو حديث عظيم صحيح يدل على أن كثرة الحلف من أسباب الوقوع في الخطأ، فهو يعتني باليمين لينفق السلعة، ولكنه يقع في الخطر وهو محق الكسب وقلة البركة، فـ الحلف منفقة للسلعة يعني مدرج لها يحلف: والله أن هذه السلعة ثمنها كذا،، وذلك لإغراءالناس الذين يسومون منه، وربما صدقوه فاشتروه، ولكنها ممحقة للكسب هي ممحقة لربحه الذي يتعاطاه بسبب تساهله في هذه اليمين.

كان إبراهيم بن يزيد النخعي رحمه الله يقول: إنهم كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار، أي كان السلف

يؤدبون أولادهم إذا قالوا: أشهد ويحلف، ويقول: وعهد الله، يضربوننا حتى لا يعتاد هذا إذا كبر، ويسهل عليه الأيمان الفاجرة والعهود الظالمة والشهادة الرديئة، يعني يؤدبونهم ويوجهونهم حتى لا يتكلموا بهذا إلا على بصيرة، لأن الصبي إذا اعتاد هذا في صغره قد يتساهل به في كبره، ولا يتحرى الصدق، وهذا من دلائل عناية السلف بالأخلاق الفاضلة، وحرصهم على تربية الأولاد على الأخلاق الكريمة والصفات الحميدة، وهذا هو الواجب على المؤمنين أن يربوا أولادهم على الأخلاق الفاضلة، وأن يعتنوا بهم حتى لا يعتادوا ما حرم الله، وحتى لا يتساهلوا فيما يجب أو يجب اجتنابه.






باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقوله ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل:٩١).

وعن بريدة قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا فقال: اغزوا بسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال-، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام؛ فإن أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها؛ فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب

المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنْزلهم، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا». (رواه مسلم).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

التنبيه على أن الوفاء بالعهود تعظيم له، وعدم الوفاء بها، عدم تعظيم، فهو قدحٌ في التوحيد.

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه، يعني باب ما جاء فيه من تعظيمهما والتحذير من إخفارهما، والتحذير أيضا من

جعلهما للناس؛ لأن جعلهما للناس وسيلة إلى إخفارهما، فليس لولاة الأمور أن يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه، ولكن يجعلوا لهم ذمة الأمير، ذمة الرئيس، ذمة الملك وذمة أصحابه دون ذمة الله وذمة نبيه، وهذا من باب تعظيم ذمة الله وتعظيم ذمة نبيه، وهذا من مقام إكمال التوحيد وإكمال الإيمان، ولهذا ذكر المؤلف هذه الترجمة هنا في كتاب التوحيد؛ لأن تعظيم ذمة الله وذمة نبيه من كمال الإيمان ومن كمال التوحيد، ولأن إخفارهما نقص في التوحيد ونقص في الإيمان وضعف في الإيمان ووسيلة للتلاعب، قال الله تعالى ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ (النحل:٩١) إذا عاهدتم أحدا فأوفوا، فلو جعل ذمة الله وذمة نبيه فالواجب أن يوفي وإن كان أخطأ في جعل ذمة الله وذمة نبيه لكن عليه أن يوفي بذلك وعليه ألا يخفر، والإخفار النقض، هذا هو الإخفار أخفر نقض وغدر، فإذا جعل ذمة الله وذمة نبيه فالواجب عليه أن يوفي وألا يخفر ولا يغدر، ولكن ليس له أن يجعل ذمة الله وذمة نبيه كما تقدم ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ (النحل:٩١) أي لا تنقضوا

العهود بعد ما أكدوها بالأيمان الشديدة والمعاهدة بل أوفى.

حديث بريدة بن الحصيب الأسلم المخرج في صحيح مسلم قال عن النبي ﷺ أنه كان إذا بعث بعثا أو أمير أميرا على الجيش يوصيه بتقوى الله إذا أمر أميرا على جيش أو سرية، عن النبي ﷺ إذا بعث بعوثا من الجيوش أو الأمراء كان يوصيهم بتقوى الله، كان النبي ﷺ يوصي الأمراء والجيش بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا، يوصي الأمير نفسه بتقوى الله، ويوصي أيضا بمن معه من المسلمين خيرا يقول: اتق الله فيهم، ارفق بهم، إلى غير هذا من الوصايا التي تنفعهم، ثم يقول له: إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو خلال- شك من الراوي هل قال: خصال أو خلال، والمعنى واحد، الخلال هي الخصال، لكن من باب عناية الرواة وتحفظهم وحرصهم على أداء الرواية كما سمعوا رحمهم الله، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم، ادعهم أولا إلى الإسلام، ادعهم إلى أن يسلموا، إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ودينوا بالإسلام، هذا أول شيء يدعى إليه الكفار كما

أمر النبي ﷺ معاذا لما بعثه إلى اليمن أن يدعوهم إلى هذا، هذا أول شيء، فإذا دخلوا في الإسلام علمهم أركانه من صلاة وغيرها، فإن هم أجابوا لك أجابوك لذلك فادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، يعني من الأعراب إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إذا تحولوا منها فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا ولم يتحولوا فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين؛ يجري عليهم حكم الله في الأوامر والنواهي، ولا يكن لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، من بقي في الأعرابية لم يكن له حق من بيت المال ولا يكن له حق فيما يحصل من الغنائم حتى يجاهد، فإن أبوا الدخول في الإسلام وأبوا التحول من دارهم إلى دار المهاجرين -إذا أسلموا- فاسألهم الجزية، الثالث الخصيلة الثالثة، فإن أجابوا إلى الجزية فاقبل منهم وكف عنهم ويبقون على دينهم، وهذا في اليهود والنصارى والمجوس.

والمعنى أن الواجب على المسلمين إذا أعطوا عهدا وميثاقا أن لا يخفروا، ولكن ليس لهم أن يجعلوا ذمة الله وذمة نبيه، بل يجعلوا

ذمتهم هم لأنهم إذا وقع منهم الإخفار صار في حقهم أسهل من الإخفار لذمة الله وذمة نبيه، وإن كان هذا لا يجوز وهذا لا يجوز، ولكن بعض الشر أهون من بعض، بعض الكبائر أشد من بعض، فالإخفار والغدر بذمة الله وذمة نبيه أشد وأعظم إثما من الإخفار والغدر بذمته وذمة أصحابه، وإن كلاهما لا يجوز.









٥٦

باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **(قال رجل والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله: من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطت عملك)** (رواه مسلم).

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد. قال أبو هريرة: (تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

أن الإقسام على الله إذا كان على وجه الحجر على الله، فهو مناف للتوحيد، لأنه من سوء الأدب مع الله تعالى.

في بيان تحريم الإقسام على الله والتألي عليه والتحجر عليه سبحانه؛ فإنه سبحانه وتعالى المتصرف في عباده كيف يشاء ولا أحد يتحجر عليه، وهذا من سوء الأدب مع الله ؛ أن

يقول: والله لا يغفر الله لفلان، والله لا يدخله الجنة، والله لا يرزقه كذا، والله لا يعطيه كذا.. كل هذا تألي على الله وجرأة عليه وسوء أدب معه سبحانه وتعالى فلا يجوز للمسلم أن يقول: والله لا يغفر الله لفلان، أو والله لا يرزق الله فلانًا، أو الله لا يصح الله فلانًا، أو لا يدخله الله الجنة، أو ما أشبه ذلك، ولهذا لما قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان؛ قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي، يعني يحلف عليّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له وأحبطت عملك، فهذا وعيد عظيم وخطير.

وفي حديث أبي هريرة: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته، المقصود أن الواجب على المؤمن أن يحذر الجرأة على الله والإقسام عليه أنه لا يفعل هذا الشيء وليحذر ذلك وليتق الله وليسأل الله لأخيه الخير والهدى والصلاح، إن كان مسلمًا دعا له بالتوفيق والهداية وحسن الخاتمة، وإن كان كافرًا دعا له بالهداية. أما أن يقسم على الله ويقول: لا يفعل هذا أو لا يرزق هذا أو لا يدخل الجنة هذا أو لا يعطى هذا كذا فهذا سوء أدب مع الله، ويجب على الانسان أن يبتعد عن هذه المحاذير.





٥٧ باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم قال: (جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نهكت الأنفس وجاع العيال وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: سبحان الله! سبحان الله! فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك أتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد وذكر الحديث)، (رواه أبو داود).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان تحريم الاستشفاع بالله على خلقه، لأنه هضم للربوبية، وقدح في توحيد العبد، لأن الشافع يشفع عند من هو أعلى منه، والله تعالى منزه عن ذلك، لأنه لا أحد أعلى منه.

باب لا يستشفع بالله على خلقه، يعني لا يقول إني أستشفع بالله عليك، هذا الحديث رواه مطعم أن النبي ﷺ جاءه ناس فقالوا: يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل، وفي اللفظ الآخر: هلكت الأموال وانقطعت السبل، يعني بسبب الجدب والقحط فاستسق لنا ربك، يعني اشفع لنا إلى ربك ليسقينا الغيث، فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فاستنكر هذا عليه الصلاة والسلام وقال: سبحان الله، سبحان الله، شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه هذا يبين أنه لا يجوز أن يقال: أستشفع بالله عليك يا فلان، ولكن يستشفع بالمخلوق على المخلوق، فيقال: يا فلان أنا استشفع بفلان عليك ما في بأس، أما على الله لا، لا يقال: أستشفع بالله عليك يا فلان، لأن شأن الله أعظم من ذلك، ومن شأن المستشفع به إلى المشفوع إليه أن المشفوع أعظم، وهذا لا يليق، فإن الله فوق الجميع، وأعظم من الجميع، فلا ينبغي لعاقل أن يستشفع بالله على خلقه، ولكن يسأله بأسمائه وصفاته ويضرع إليه في طلب حاجاته، أما المخلوقون فلا يستشفع إليهم بالله، وإنما يستشفع إليهم

ببعضهم بعضا، كأن يستشفع إليه بأبيه، بأخيه، بعمه، بمن يعز عليه أن يعطيه كذا، أو يعينه على كذا، أو ما أشبه ذلك، وهذا من عادته ﷺ إذا سمع ما يكره قال: سبحان الله، سبحان الله، أو الله أكبر الله أكبر، وقد يقول ذلك عند الأمر العظيم أيضًا، وهكذا الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم يقولون ذلك.

فهذا التكبير والتعظيم عند ذكر العظيم المحبوب وعند ذكر العظيم المكروه المنهي عنه، فيقال: سبحان الله، والله أكبر، عند هذا وعند هذا، عند المحبوب فرحا به، وعند المكروه إنكارا له، ومن هذا نستشفع بالله على خلقه من باب الإنكار وبيان أنه لا يليق أن يستشفع بالله على أحد من خلقه.






٥٨

باب ما جاء في
حماية النبي ﷺ حمى التوحيد

عن عبد الله بن الشخير قال: «انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ فقلنا: أنت سيدنا فقال: السيد الله تبارك وتعالى قلنا: وأفضلنا فضلا وأعظمنا قولا. فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان (رواه أبو داود بسند جيد).

«وعن أنس أن ناسا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمد عبد الله ورسوله. ما أحب أن ترفعوني فوق منْزلتي التي أنزلني الله عز وجل (رواه النسائي بسند جيد).

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

بيان أن التوحيد لا يتم إلا بتجنب كل قول يفضي إلى الغلو في

المخلوق ويخشى منه الوقوع في الشرك.

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك، تقدم قبله باب قال: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق إلى يوصل إلى الشرك، جناب التوحيد وهنا قال: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، والفرق بينهما أن الأول في حمى جناب التوحيد وجناب الشيء وجانبه منه وجزء منه، وأما هنا فالمقصود حماه والحمى الخارج عن الشيء حماية يعني الشيء الذي قد يفضي إلى نقص التوحيد ليس من جانب التوحيد ولا جزءًا منه ولكنه حماه كما يقال في حمى البيت وحمى الأرض وحمى المملكة وأشباه ذلك، فالمقصود سد الطرق التي قد توصل إلى الشر وتوقع في الشر وإن كانت بعيدة عن الشر ليست في الأصول في شيء ولكنها في حماه، ولهذا لما قالوا: يا رسول الله، أنت سيدنا، قال: السيد الله تبارك وتعالى، فإنه هو سيد ولد آدم ولا شك لكن خاف عليهم أن يقعوا في الغلو لما خاطبوه: أنت سيدنا، يا خيرنا، يا سيدنا وابن سيدنا خاف عليهم من الغلو، فقال: قولوا بقولكم أو ببعض قولكم ولا

يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله! فهذا أمر حق وصواب فهو سيدهم وهو خير الناس، ولكن خاف عليهم لما خاطبوه بهذه المخاطبة أن يقعوا في الغلو وأن يدعوه من دون الله أو يستغيثوا به من دون الله ويظنوا أن له تصرف في الكون دون الله، خاف عليهم فحمى حمى التوحيد من أن يقع فيه شر كما قال في الحديث الآخر قال: لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله النصارى غلت وقالت: عيسى ابن الله، وأنه الله أو ثالث ثلاثة، فوقعوا في البلاء في الشرك الأكبر، والرسول ﷺ خاف على أمته من هذه الكلمات التي يواجهونه بها أن يقعوا في الشرك وأن يقعوا في المحرم، وإلا فقد قال ﷺ: أنا سيد ولد آدم ولا فخر، هو سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام وهو أفضل الناس.





٥٩ باب قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (الزمر:٦٧)

عن ابن مسعود قال: «جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقا لقول الحبر. ثم قرأ ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ (الزمر:٦٧).

وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله.

مناسبة الباب لكتاب التوحيد:

هذا الباب ختاماً لكتاب التوحيد، وهذا الباب المشتمل على

النصوص الدالة على عظمة الله وخضوع المخلوقات له.

وفي حديث ابن مسعود أن حبرا من الأحبار، يقال حبر بالفتح، ويقال حبر بالكسر، والحبر العالم، حبر من الأحبار يعني عالم من العلماء، ويفتح أيضا يقال حبر، جاء إلى النبي ﷺ يعني من علماء اليهود، وأخبر أنهم يجدون في كتبهم يعني التوراة: أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء على إصبع، والشجر على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، وفي اللفظ الآخر: والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع يعني أنه سبحانه يحمل هذه المخلوقات على أصابعه الخمسة جل وعلا، فمع عظمتها وسعتها هذه السماوات مع عظمتها وهذه الأرض مع ما فيها من الجبال والشجر وغير ذلك وهذه المخلوقات العظيمة هو يأخذها بيده جل وعلا على أصابعه الخمسة ويهزها ويقول: أنا الملك، أنا الجبار، أين الجبارون؟ أين ملوك الأرض؟ هذا كله يبين لنا عظمته وقدرته العظيمة، ولهذا ضحك النبي ﷺ تصديقا لقول

الحبر ثم تلا الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ (الزمر:٦٧) تلاها تصديقا له في هذا إثبات الصفات، وأن له يمينا وشمالا، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث الآخر كلتا يدي ربي يمين مباركة سمى إحداهما يمين، وسمى إحداهما شمالا من حيث الاسم، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاهما يمين مباركة، ليس في شيء منهما نقص، وكذلك الكف، ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدنا، هذا يبين لنا عظمته سبحانه وسعة جوده وكبريائه، وأنه الخلاق العليم، وأنه المالك لكل شيء، وأنه المستحق لأن يعبد جل وعلا دون كل ما سواه، من كان بهذه الصفات وهذه القدرة وهذا الكمال فهو المستحق لأن يعبد ويطاع، ولهذا خلق الخلق ليعبدوه، وأمرهم بذلك في قوله سبحانه﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦). من ذلك حديث ابن مسعود هذا، وهو حديث صحيح جيد، وحديث ابن عباس وإن كان في سنده بعض الانقطاع لكنه منجبر، وإلا بعض أهل العلم أعله بالانقطاع، والرواية الأخرى

بين السماء الدنيا والتي تليها إحدى وسبعين سنة، أو ثنتان وسبعون، أو ثلاث وسبعون سنة قال بعض أهل العلم: الجمع بينهما أن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال والجري بالأقدام السير العادي، وثلاث وسبعون سنة ونحوها بالنظر إلى سير البرد، السير الخفيف القوي فإنه يكون بمقدار سدس بالنسبة إلى الأحمال والمثقلات أو حول ذلك.

فالحاصل أن هذا على كل تقدير يدل على علو الله جل وعلا، وأنه فوق العرش، وأنه فوق جميع الخلق أنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم مع علوه وفوقيته لا يخفى عليه شيء من أعمالنا.، وفيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات وسعة ما بينها بهذه المسافات العظيمة، وربك هو الخلاق العليم جل وعلا، هذه السماوات شأن عظيم، وهذا الفضاء الذي بيننا.. السماء وهكذا بين كل سماء، سواء كان خمسمائة عام كما في حديث ابن مسعود، أو ثلاث وسبعون عاما كما في رواية ابن عباس بالنظر إلى سير البرد والمراكب المستعجلة، وهو يدل على سعة ما بين هذه

المخلوقات، وبعد ما بين هذه المخلوقات، والذي خلقها أعظم منها وأكبر جل وعلا، فهو المستحق لأن يعبد ويعظم، مع الإيمان بعلو وفوقيته، وأنه لا تخفى عليه خافية من عباده، يعلم ما في قلوبهم ويعلم السر وأخفى، ولا يغيب عن علمه شيء مع كونه فوق جميع هذه المخلوقات.

هذا الباب الأخير في الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة، فذكر الآية الكريمة باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧) هذه الآية العظيمة تبين عظم قدرته، وأنه الخلاق العليم، وأنه يطوي السماوات ويقبض الأرض، فدل ذلك على عظم قدرته، ومن كان بهذه المثابة فهو حري بأن يعبد ويطاع ويعظم، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله، لا شبيه له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، فالله جل وعلا له الصفات العليا والأسماء الحسنى، وهو سبحانه الخلاق الرزاق، وهو سبحانه أيضا المستحق للعبادة، فجميع أنواع التوحيد ثابتة له، وهو الخالق لكل

شيء، والمالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، وهو الحكيم الخبير، السميع البصير، العلي القدير، الحميد المجيد، الموصوف بالصفات العليا وبالأسماء الحسنى، ومن ذلك يعلم أيضا أنه المستحق للعبادة، وأنه لا يستحقها سواه لكمال قدرته، وكمال علمه، وكمال أسمائه وصفاته، فمن كان بهذه المثابة فإنه يستحق لأن يعبد ويطاع، لأنه المالك لكل شيء، والقادر على كل شيء، والرزاق لعباده، والقائم بحاجاتهم وأعمالهم.






المراجع والمصادر

١. التمهيد لشرح كتاب التوحيد لمعالي صالح بن عبد العزيز محمد آل الشيخ، دار التقوى، مصر، ١٤٣٧/٢٠١٦م، طبعة جديدة.

٢. الملخص في شرح كتاب التوحيد لمعالي الشيخ صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار المنهاج للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، الرياض، ١٤٤٠هـ.

٣. القول المفيد على كتاب التوحيد لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة التاسعة، الرياض، ١٤٤٠هـ.

٤. كتاب التوحيد لفضيلة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار الضياء للنشر والتوزيع، مصر،

طنطا، ١٤٢٢هـ.

٥. الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت.





المختصر المفيد في شرح كتاب التوحيد

التوحيد هو أعظم ما أمر الله به، ومن ثم اهتم العلماء بالدعوة إليه، والنهي عن الشرك، فألفوا في ذلك الكتب، ومن هؤلاء العلماء الإمام محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى حيث ألَّف كتاب التوحيد فبين فيه ما بعث الله به رسله من توحيد العبادة، وذكر الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه، وقد اعتنى أهل العلم بهذا الكتاب عناية كبيرة، فله أكثر من عشرين شرحاً ما بين مطول ومختصر، ولا زال العلماء إلى يومنا هذا يعتنون به لعظم منفعته، ومن ذلك كتاب: (المختصر المفيد في شرح كتاب التوحيد) وهو شرح مختصر لطيف، كُتب بأسلوب سهل واضح يفهمه عموم الناس، وامتاز بحسن الاختصار، وذكر مناسبة كل باب لكتاب التوحيد، وضرب الأمثلة.